

# تنميط الإسلام في التصورات الغربية بين الأصولية والفوبيا: قراءة تحليلية نقدية

أيمن طلال يوسف

الجامعة العربية الأمريكية - جنين، فلسطين.

## مقدمة

اتسمت علاقة الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي بالعداء والصراع المستميت عبر فترات طويلة من التاريخ، حيث وصل العداء إلى ذروته خلال فترة الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر، لأن هذه الحروب مثلت محاولة أوروبية مسيحية لاستعادة الشرق العربي من النفوذ الإسلامي الذي كان في يوم من الأيام ضمن مناطق السيطرة الرومانية المسيحية. ورغم أن الأوروبيين دخلوا إبان مرحلة الاكتشافات الجغرافية والتوسع الاستعماري في أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا، في علاقات صراعية وصدامية مع الشعوب والأمم في هذه المناطق، فقد كان صراعهم مع الشعوب والإمارات والدويلات الإسلامية دائماً يأخذ طابعاً مميزاً ومختلفاً عن أشكال الصراع الأخرى. والسبب في ذلك يعود إلى أن المسلمين عبر التاريخ ظلوا حاملين مشروعاً حضارياً إنسانياً ذا طابع كوني عالمي، يسعى لنشر رسالة الإسلام كديانة وحضارة في مشارق الأرض ومغاربها. وبما أن المسلمين دافعوا عن مشروعهم العالمي، فقد اصطدموا بمشروع عالمي آخر مثله، وهو مشروع الأوروبيين الذين نشروا نموذجهم الحياتي العام في أغلب مناطق العالم. الفرق بين المشروعين هو أن الانتشار الإسلامي كان لأسباب دينية وأهداف حضارية، لأن الإسلام دين عالمي، ويمثل نموذج حياة، لذلك تقف على المسلمين مهمة نشره بكل الطرق الممكنة، بما فيها الجهاد العنفي. أما التوسع الأوروبي، فلم يكن لنشر فلسفة دينية أو معتقد روحاني بقدر ما كان توسعاً إمبريالياً واستعماريًا، حيث إن التطورات الصناعية والرأسمالية والمادية في هذه المجتمعات، وخصوصاً بعد الثورة الفرنسية والثورة الصناعية، قد أجبرت الدول الأوروبية الاستعمارية على استكشاف العالم الجديد، واحتلال العالم القديم بحثاً عن الأسواق والموارد والعمالة الرخيصة، ومن أجل تصدير الأزمات الداخلية والروحية التي عانتها المجتمعات الأوروبية في تلك الفترة.

كان من نتائج ظهور المادية الاستهلاكية والرأسمالية المتوحشة والقوميات المتعصبة على الأرض الأوروبية، حربان عالميتان مدمرتان سببتا الويلات والدمار والخراب وملايين القتلى. وشهدت الحرب العالمية الأولى نهاية الدور الإسلامي العالمي بعد هزيمة الدولة العثمانية، وتفكك دولة الخلافة عام ١٩٢٤، حينما أعلن كمال أتاتورك استبدالها بدولة

وطنية علمانية قائمة على صبغة لغوية خاصة وتاريخية وثقافية ضيقة. من هنا يمكن القول إن الهجمة الغربية الإمبريالية والاستعمارية على بلاد العرب والمسلمين منذ القرن التاسع عشر، وتراجع دور المسلمين في العالم، إضافة إلى شيوع الفلسفات والأيدولوجيات المعاصرة، كالعلمانية والاشتراكية والديمقراطية، قد ساهمت في ظهور حركات الإسلام السياسي في الأقطار العربية ابتداء من عام ١٩٢٨، عندما نجح حسن البنا في تأسيس حركة الإخوان المسلمين في مصر، وانتشارها لاحقاً في العديد من الأقطار العربية والإسلامية.

خبت حدة الصراع الإسلامي - الغربي في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية وحتى انتهاء الحرب الباردة وانتهاء الاتحاد السوفياتي، وأصبح التناقض العالمي بين دول غربية، مثلها الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، محتدماً، حيث أخذ الصراع أبعاداً أيديولوجية، ولم يكن للدول الإسلامية دور فاعل في هذا الصراع المحتدم بين الرأسمالية والشيوعية بسبب عدم امتلاك إمكانات التأثير وقدراته في مجرى الأحداث الدولية، ولأن العديد من الدول الإسلامية انحازت إلى أحد طرفي الصراع، متحولة بذلك إلى أدوات مطواعة يستخدمها الأقوياء في عالم السياسة. إن الاستقطاب الأيديولوجي والعسكري والسياسي بين أمريكا وروسيا خلال فترة الحرب الباردة أثار ردود أفعال كثيرة في أوساط المسلمين المسيئين، الذين رأوا في هذا الاستقطاب نوعاً من الامتهان لكرامة الأمة وسمعتها، لأنها لا تمتلك مشروعاً حضارياً ثقافياً عالمياً قادراً على منافسة المشروع الغربي الرأسمالي والمشروع السوفياتي الشيوعي. فهذا الضياع بين المشروعين ربما كان أحد أسباب تجذير القاعدة الشعبية وتعميقها للإسلاميين المعاصرين الذين اعتُبروا - في نظر الإنسان العربي والمسلم العادي - نموذجاً إسلامياً يهدف إلى إعادة تجديد أمجاد الإسلام الغابرة.

دخل الإسلام والحركات الإسلامية المعاصرة على خط العلاقة بين الغرب من جهة والعرب والمسلمين من جهة أخرى بعد انهيار المنظومة الشيوعية العالمية التي مثلها الاتحاد السوفياتي عام ١٩٩١، فظهر العديد من النظريات والمفاهيم التي حاولت الوقوف على طبيعة الاستقطاب في النظام الدولي، وهذا ما دفع إلى ظهور أطروحات فكرية وأيديولوجيات غربية اعتمدت على البعد الحضاري والديني كمتغير مهم في قولبة العلاقات بين الأمم والشعوب. فقد ظهرت كتابات براقية ولافتة للنظر في هذا الاتجاه، من أهمها كتاب صمويل هانتغتون **صراع الحضارات** الذي يحاول أن يثبت فيه أن الأبعاد الحضارية والثقافية والمعتقدات الدينية هي العوامل المهمة المحركة للعلاقات بين الأمم والشعوب، وأن المصالح الوطنية الضيقة لدول اليوم باتت تحتل المركز الثاني. كما ظهرت أطروحة فرانسيس فوكوياما **المسماة نهاية التاريخ**، حيث يجادل بأن نهاية الحرب الباردة عنت باللغة الهيغيلية أن التاريخ قد انتهى، لأن الرأسمالية الغربية كأحد أقطاب النظام الدولي بقيت وحيدة في ميدان الصراع بعد اندثار الشيوعية السوفياتية. وفي أطروحته هذه ينصح فوكوياما لدول العالم الثالث الفقيرة بضرورة التحرك سريعاً لتقليد نموذج الغرب السياسي والاقتصادي والثقافي لأنه الحل لجميع المشاكل التي تعانيها دول العالم، بما فيها الأقطار العربية والدول الإسلامية ككل. يستشف الباحث من أطروحات هانتغتون وفوكوياما رائحة

الاستعملائية الغربية والفضوقية والعنصرية، حيث إن هناك تعصباً واضحاً للنموذج الغربي في التحديث والتنمية الشاملة، وتناسى تماماً أن العالم ليس واحداً، وأن هناك تعددية في الرؤى والنماذج ووجهات النظر، وأن الرؤية التي قدمها هانتنغتون وفوكوياما ما زالت مقصّرة عن على فهم العالم كما هو، وفيها الكثير من العنجهية والاستعملائية الغربية. كما أن هذه الرؤية تعكس المركزية الأوروبية — الأمريكية التي سادت لفترة طويلة من عمر البشرية، خصوصاً منذ الاكتشافات الجغرافية، وتأسيس النزعة الاستعمارية التي تبعثها، وانطلاق مشروع الاستعمار الجديد وما ارتبط به من آليات هيمنة أكثر تقدماً وحدثاً.

تولد عن هذا المفهوم العنصري القمعي للمركزية الأوروبية — الأمريكية مجموعة من المفاهيم والمصطلحات الأخرى، مثل «الأصولية» و«الإسلام السياسي» و«الإرهاب الإسلامي» والد «إسلامو — فوبيا»، إضافة إلى «صراع الحضارات» وبعض العبارات الفاشستية التي تعكس عقلية متجددة تحاول استباحة كل شي حتى اللغة والمعاني وأدوات التخاطب والتحاوّر البشري. لقد تناسى أصحاب الأطروحات الغربية حول الإسلام والإسلاموية، التي وصمته بالأصولية والفوبيا والإرهاب، أن هذه الأطروحات نفسها تحولت إلى نوع جديد من الأصولية الفكرية والأيدولوجيا، كونها ارتكزت على فرضية أن انتصار الليبرالية الغربية قد صنع نهاية تطور الأيدولوجيا الإنسانية، خاصة أن الليبرالية الغربية تسلحت بأدوات العولة، وهي في الحقيقة ناشرة لثقافة العولة التي تنمي الأنا وتمجدها، في الوقت الذي تنفي فيه الآخر، وتصادر خصوصيته الثقافية والحضارية. إن تصاعد موجات الأصولية الإسلامية قد يكون موازياً لتصاعد أصولية العولة ورد فعل عليها، خصوصاً من حيث كونها آخر مراحل تطور النظام الرأسمالي العالمي في أقصى صورته، لاسيما أن العولة في كل صورها وأشكالها الإعلامية والثقافية والسياسية والاقتصادية لا تمنح شعوب العالم، بمن فيها المسلمون، فرصاً وخيارات.

## مشكلة البحث

تكمن مشكلة البحث في العلاقة التي يحاول الباحث جاهداً أن يبينها بين ثلاث مراحل في الفكر الغربي تجاه الإسلام والمسلمين؛ ففي المرحلة الأولى كان هناك تنميط غربي للإسلام، وقد امتدت هذه الفترة منذ القرن التاسع عشر حتى بدايات القرن العشرين، وبالتحديد نهاية الحرب العالمية الأولى. خلال هذه الفترة، كانت تصورات الغرب الاستعماري حول الإسلام تعكس الصور النمطية، والقوالب الذهنية الجاهزة التي أسقطت على الإسلام والمسلمين، وصوّرتهم قوماً من الرعاع المتنقلين على الجمال في الصحاري العربية، والباحثين عن الماء والكلأ وعن النساء في إطار تعدد الزوجات. وفي المرحلة الثانية اتسمت النظرة الغربية تجاه الإسلام بالأصولية والتزمت الفكري، وقد جاء ذلك منذ نهاية الحرب العالمية الأولى حتى بدايات الثمانينيات من القرن العشرين. وقام العديد من المفكرين والمستشرقين والخبراء الغربيين بإسقاط مفاهيم غربية، مثل الأصولية التي هي في الأساس نتاج البيئة الغربية والتجربة المسيحية، على الحركات الإسلامية التي ظهرت خاصة بعد عام ١٩٢٨، وهو العام نفسه الذي تأسست فيه حركة الأخوان المسلمين في مصر. وفي هذه المرحلة أيضاً بدأ الحديث يزداد عن الإسلام والإسلاموية والذي يمثل فعلاً مشروعاً فكرياً وحضارياً مضاداً

ومعارضاً ومتحدياً للنموذج الغربي. أما المرحلة الثالثة، فقد امتدت من عام ١٩٧٩ إلى هذه الأيام، حيث شهد عام ١٩٧٩ انطلاقة الثورة الإسلامية في إيران وانطلاق الجهاد الأفغاني ضد الشيوعية السوفياتية في أفغانستان. وفي هذه المرحلة تحول الإسلام إلى نوع من الفوبيا والخوف غير المبرر عند الإعلام ودور النشر ومراكز الأبحاث الغربية. وقد تعززت هذه الصورة بعد نهاية الحرب الباردة، وبداية البحث الأمريكي عن عدو جديد يُستغل كشمجب يعلق عليها جميع أسباب التدخلات الغربية والأمريكية في العالم الثالث. ولعل ظهور القاعدة ونموذج طالبان في أفغانستان عزز هذه الصورة المرعبة حول الإسلام، وقد تعمقت هذه الصورة في الإعلام الغربي وفي الوجدان والعقلية الغربية بعد أحداث أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

## أهمية البحث

تتبع أهمية هذا البحث من خلال استعراض النقاط الآتية:

١ - فهم معنى مجموعة من المفاهيم ومضمون التصورات النظرية مثل: الأصولية والنمطية والتنميط والفوبيا، وذلك من خلال محاولة سبر أغوار الأدبيات الغربية الكثيرة التي تناولت مثل هذه المفاهيم والسياقات التاريخية والاجتماعية التي أنتجتها.

٢ - من أجل وضع السياسات الغربية عموماً، والأمريكية على وجه الخصوص، في سياق العملية التاريخية للعلاقات العربية الإسلامية من جهة والغربية الأمريكية من جهة أخرى، وتطور الموقف الأمريكي من القضايا العربية والإسلامية، الذي يبدو أنها متأثرة في بعض جوانبها بالعملية التاريخية التي صنعت هذا العداء بين الإسلام والغرب.

٣ - الاستفادة قدر الإمكان من المنهجية التاريخية التي تقوم على تفحص الأدبيات والمصادر الأولية والثانوية المتعددة والمتنوعة، وخاصة في سياق تناولها موضوعاً حساساً وشائكاً مثل العلاقة بين الغرب والإسلام اليوم، وما يشوبها من استفزات فكرية وإعلامية وأيديولوجية أصبحت تلقي بظلال ثقيلة على علاقات التبادل والحوار بينهما.

٤ - المساعدة في فهم المواقف الغربية وتقديرها اليوم من قضايا العرب والمسلمين، والانطباعات العامة التي كونها الغربيون تجاه الإسلام والمسلمين، خاصة في سياق تصريحات الرسميين وغير الرسميين الغربيين التي تهاجم الإسلام كديانة وحضارة. لذلك يهدف هذا البحث لاستعراض تاريخ التصورات الغربية تجاه الإسلام من أجل وضع الانطباعات المعاصرة في سياق تاريخي صحيح.

٥ - دحض فكرة أن الإسلام المعاصر والحركات الإسلامية بدأ يشكلان تهديداً وتحدياً خطيراً للمشروع الغربي، وإثبات أن هذه الفكرة ما هي إلا فرضية خالية من أي مضمون، كون الدول والشعوب الإسلامية لا تمتلك أدوات التأثير والقوة التي تصنع التحديات، وعلى المستويات السياسية والاقتصادية والفكرية والإعلامية كافة.

٦ - من أجل إفهام المسلمين أن إقحام الإسلام في الصراعات الدولية كلها يمكن أن يكون ضاراً جداً بمكانتهم في العالم ومكانة الإسلام كديانة متسامحة ومتوازنة وقابلة

للتطور، لذلك فإن الترويج من بعض الدوائر الغربية من أن الإسلام هو التحدي القادم إنما يخدم الغرب ومشروعه، ويساهم هذا في بقاء العالم الغربي متماسكاً في وجه ما يسميه الخطر الإسلامي.

٧ - إن الإسلام اليوم هو من أكثر الديانات التي تنمو وتتوسع في العالم، وخصوصاً في الغرب، وبالتالي فإن الترويج لمثل هذه القوالب النمطية والأصولية السلبية عن الإسلام، والتي تحمل في بواطنها أن الإسلام دين جهاد وعنف ودم لا يخدم إلا أعداء المسلمين في هذه المرحلة الشائكة التي يمر بها المسلمون.

## أهداف البحث

يسعى البحث لتحقيق الأهداف الآتية:

١ - التعرض بشيء من التحليل للأدبيات الغربية التي كتبت عن الإسلام، ولموضوع الحركات السياسية الإسلامية، ومعرفة السياقات التاريخية التي أنتجت الصورة النمطية السلبية عن الإسلام والمسلمين.

٢ - معرفة العوامل والأسباب والدوافع والمتغيرات التي غدت مثل هذه النظرة الغربية الضيقة، خاصة فيما يتصل بالأحداث الدولية التي عصفت بالعالم في آخر قرن، حيث كان هناك صعود إمبراطوريات وهبوط أخريات.

٣ - بيان القصور في النظرة الغربية والمصادر الغربية التي كتبت عن الإسلام، حيث إن هذه المصادر ساوت بين الإسلام كديانة وحضارة من جهة والحركات الإسلامية المعاصرة من جهة أخرى، وظلت في الإجمال تعطي الإسلام والمسلمين صورة نمطية سلبية وسوداوية.

٤ - لتوضيح أن المصادر الغربية لم تكن دقيقة في التفريق، ليس فقط بين الإسلام والحركات الإسلامية، وإنما أيضاً التمييز بين الحركات الإسلامية نفسها، حيث يوجد فيها المعتدل والوسطي والراديكالي والسلفي والجهادي، أما أن توضع كلها في سلة بحثية وأكاديمية واحدة، فهذا يعكس نوعاً من القصور والنظرة الضيقة.

٥ - إن تنميط الإسلام وتحويله إلى فزاعة و«بعبع» خطير في العلاقات الدولية هو أيضاً ضار بالمصالح الغربية في المنطقة، خاصة البترول ومصادر الطاقة، لأن مثل هذه النظرة ستساهم في زيادة راديكالية الشعوب الإسلامية، وستوفر بيئة خصبة للحركات الإسلامية العنيفة، لاستقطاب أعداد جديدة من أبناء هذه الشعوب، خاصة الفقيرة والمسحوقة في مجتمعاتها.

أما بالنسبة إلى المنهجية في هذا البحث، فهي تقوم على اتباع المنهجية التاريخية الوصفية التحليلية النقدية من خلال الولوج إلى المصادر الأولية والثانوية، التي تم تحصيلها بطرق مختلفة، وتعكس وجهات النظر الغربية حول الظاهرة الإسلامية المعاصرة. إن تحليل المحتوى والمضمون في هذه الأدبيات بطريقة نقدية فاحصة هدفت في النهاية إلى التعرف

إلى وجهات النظر الغربية بكل علمية وعقلانية وحياد، وبعيداً عن التحيزات الضيقة، والنظرة النمطية المكونة مسبقاً على شكل قوالب ذهنية وصور جاهزة. كانت مهمة الباحث ليس فقط استعراض الأدبيات وتحليلها، وإنما أيضاً التعقيب عليها نقدياً، والسعي الحثيث لتقديم إضافات بحثية جديدة. وقد تنوعت المصادر بين الوثائق والكتب والصحف والمجلات التي تم الحصول عليها من مصادر متعددة. وحاول البحث أيضاً طرح إضافات نظرية ومفاهيمية مهمة من خلال التطرق إلى معاني المصطلحات المستخدمة في البحث.

## أسئلة البحث

يحاول هذا البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ١ - ما المواصفات والمحددات الأيديولوجية والفكرية للمركزانية الغربية؟
- ٢ - كيف انعكس المحتوى الأيديولوجي للمركزانية الغربية على فهم الإسلام؟
- ٣ - ما الدوافع والأسباب التي دفعت المستشرقين إلى تنميط الإسلام؟
- ٤ - ماهية العلاقة بين التنميط من جهة وهزيمة الخصم معنوياً ونفسياً من جهة أخرى؟
- ٥ - كيفية العلاقة بين المدارس الاستشراقية والاستعمار والإمبريالية؟
- ٦ - ما منطلقات ومحددات الغرب في إسقاط مفاهيم غربية على السياق العربي والإسلامي؟
- ٧ - ما أسباب صعود المد الأصولي الإسلامي من وجهة النظر الغربية؟
- ٨ - هل تعد الأصولية الإسلامية في أطروحاتها الإستيمولوجية والمعرفية تحدياً للغرب؟
- ٩ - لماذا ركز الغرب بمدارسه الفكرية وبنيتة العقلية والمعرفية على القواطع والفواصل مع الحضارة الإسلامية؟
- ١٠ - لماذا تم تضخيم الخطر الإرهابي بهذا الشكل وإصاقه بالإسلام والمسلمين؟
- ١١ - ما الأدوات والوسائل التي اعتمدها الغرب، وبالتحديد أمريكا، في الرد على أحداث أيلول/سبتمبر ٢٠٠١؟
- ١٢ - كيف أثرت أحداث أيلول/سبتمبر على صورة الإسلام والمسلمين في العالم؟

## أولاً: الفكر الاستشراقي وتنميط الإسلام

في تحفته الفكرية، الاستشراق<sup>(١)</sup>، يجزم إدوارد سعيد بأن الاستشراق صناعة أوروبية واخترع أوروبي تبناه الأوروبيون، ولاسيما الفرنسيون والبريطانيون، منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وكأي مفكر ومثقف، وواع، دأب إدوارد سعيد في تقديم كتابه في إعطاء

Edward W. Said, *Orientalism* (London: Routledge and Kegan Paul, 1978).

(١)

تعريفات نظرية ومفاهيمية محددة لمفهوم الاستشراق ووضعه في سياقه الصحيح، حيث نظر إلى الاستشراق على أساس انه حقل معرفي أكاديمي يخدم مجموعة من المؤسسات البحثية الأكاديمية التي تعنى بدراسة الشرق من وجهة نظر علماء الإنسان والاجتماع والنفوس والسياسة والفن والأدب المقارن<sup>(٢)</sup>. إن الاستشراق منهجية فكرية قائمة على أساس التمييز المعرفي/الإبستمولوجي بين الشرق (Orient) والغرب (Occident)، هنا شكل التمييز بين عالمي الشرق والغرب نقطة البداية للكثير من العلماء والمفكرين والمثقفين والمهتمين الغربيين في حقول علمية ومعرفية، لتطوير أدائهم النظري وتجريب أبحاثهم الإمبريقية، خاصة تلك التي تعنى بالظواهر الاجتماعية والسياسية والتوصيفات التي تختص بالأدب والشعر والتراث وطريقة الحياة عموماً. أما أخيراً، فقد اعتُبر الاستشراق أسلوباً غربياً ناعماً وخادعاً قائماً على منهجية تفكيك منظومة الآخر الفكرية والثقافية والسيطرة المباشرة عليه. ويرى سعيد أن بعض الجامعات الأوروبية والأمريكية خلقت برامج ودوائر علمية وأكاديمية تعنى باللغات والحضارات الشرقية، فهناك كلية الشرق في جامعة أكسفورد البريطانية، بينما عززت جامعة برنستون دائرة الدراسات الشرقية، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية. وفي عام ١٩٥٩، كلفت الحكومة البريطانية لجنة خاصة لإعادة تقييم التطورات والتغيرات في حقول الدراسات الشرقية والسلافية والأوروبية الشرقية والأفريقية<sup>(٣)</sup>.

تقاطعت مجموعة من العوامل والأسباب التي ساهمت في صوغ الشرق والغرب وخلقهما كمفهومين متنافرين ومتناقضين في المصالح والرؤى والتصورات. فالعلاقة التاريخية والثقافية بين أوروبا الاستعمارية والشرق الفقير، والنظام التدريسي الغربي في القرن التاسع عشر (الذي عكف على دراسة مختلف الثقافات الشرقية، إضافة إلى الافتراضات والأطروحات الأيديولوجية والصور والأخيلة الغربية) صنعت صورة غريبة عن الشرق أخذت مع الوقت صفة الديمومة والجمود. هذه الصورة المتخيلة نجدها أيضاً واضحة في آراء وكتابات مثقفين عرب آخرين، خاصة أولئك الذين بذلوا جهداً طيباً لمعرفة منشأ الآراء الأمريكية المتصلة بقضايا العرب والمسلمين والفلسطينيين، التي تشكلت بفعل الأدب الأمريكي والكتب المدرسية والصحافة والأفلام وبعض الكنائس<sup>(٤)</sup>. خطورة التصورات الغربية عن الشرق عموماً والعرب والمسلمين خصوصاً، أنها ضبابية ومضللة، لأنها تحاول تثبيت فكرة دونية الشرق وتفوق الغرب، وأنها تستغل العولة بمظاهرها المختلفة، خاصة عولة الاتصالات والإعلام، لتقول لنا جميعاً إن رقي الشرق يعتمد على قربه من الغرب<sup>(٥)</sup>.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٣.

(٤) ميخائيل سليمان، فلسطين والسياسة الأمريكية: من ويلسون إلى كلينتون (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦)، ص ٩ - ٤٢.

(٥) Anthony Giddens، «From the Consequences of Modernity.» in: *Colonial Discourse and Post - Colonial Theory: A Reader*, edited and introduced by Patrick Williams and Laura Chrisman (New York: Columbia University Press, 1994), p. 185.

في الثقافة والإمبريالية، هناك محاولة جادة من إدوارد سعيد لوضع الاستشراق وقولبته بطريقة يُجيب من خلالها عن بعض التساؤلات والاستفسارات التي بقيت بلا إجابات في كتاب الاستشراق. في مرحلة تفكك الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية، يُظهر لنا إدوارد سعيد مجموعة من الأقلام العربية وغير العربية، القادمة من آسيا وأفريقيا، خلاقة ومبدعة بشكل كافٍ، وتظهر في أدبياتها ومساهماتها العلمية الناقدة إعادة قراءة تاريخ الاستعمار، والتوسع الإمبريالي من خلال طرق المخطوطات والمحفوظات الغربية. ما يضع الثقافة الإمبريالية في قالب جديد هو القدرة العالية والخلاقة التي أظهرها إدوارد سعيد لرفض الفصل بين الأبيض وغير الأبيض عندما تتعلق القضية بالإبداع والابتكار والإنجاز والمساهمة في صناعة التاريخ والحضارة. فالعالم هو عالم من المشاركة والثقافات المتقاطعة والمخطوط التراثية المتلاقية بحيث تساهم هذه في إثراء التاريخ الإنساني والحضارة البشرية<sup>(٦)</sup>.

أما القيمة الفكرية التي جسدها سعيد في الثقافة والإمبريالية، فهي وضع اللبنة والمداميك النظرية لثورة هائلة في العلوم الإنسانية والاجتماعية؛ فقد انطلق سعيد من معطيات ومنطلقات محورية تمثلت في فهم العلاقة المبطنة بين القوة والسلطة من جهة، والإنشاء والنصوص والسرديات من جهة أخرى، ومن ثم إسقاط ذلك على الثقافة والتاريخ والمجتمع والأدب والرواية. وتكمن خطورة السرديات، من وجهة نظر سعيد، في تشكل سرديات رسمية كبرى للتاريخ مرتبطة بالفكر والثقافة الإمبريالية، تكون أولويتها الأولى منع ظهور سرديات مغايرة ومختلفة عن سردية القوى الإمبريالية<sup>(٧)</sup>. وتكتسب السردية الغربية عن الشرق وعن العرب خصوصاً خطورة مركبة عندما تتحالف السرديات والتصورات النظرية والسياسية مع وسائل الإعلام، وتقوم بإنتاج صورة «تقليصية وعرقية وعنصرية» عن العرب، مصورة العرب في التدفقات الإعلامية والعروض التلفازية والإذاعية، بأنهم راكبو جمال، وأصحاب نفوس دنيئة، ومنتجو ومفرخو إرهابيين، وشيوخ أثرياء يبحثون بشغف وجنون عن النساء والمتع المؤقتة<sup>(٨)</sup>.

وقع الإسلام بين مطرقة التغريب وسندان الاستعمار، وما بينهما من صورة نمطية خلطت الشرق بالإسلام، وعكست سلبيات الشرق كلها وكأنها الإسلام. وساهم التبشير المسيحي، الذي سبق الاستشراق الغربي وتداخل معه، في تأكيد هذه الصورة. فالمبشرون والمستشرقون كانت نظرتهم للإسلام دونية وعدوانية واستعمارية، وبرأيهم لا تتوفر فيه صفات الدين. لقد بقي الإسلام، وسيبقى موضوعاً يستقطب اهتمام البحث والفكر الغربيين، ولذلك يجد الباحث مفكراً مثل هيغل يتحدث عن الإسلام فيقول: إننا لا نجد فيه

(٦) إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، نقله إلى العربية كمال أبو ديب (بيروت: دار الآداب، ١٩٩٤).

ص ١١.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٦ - ١٧.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٠٥.



صفة التوكل على الحسية الأكثر عمقاً، وإنما السقوط في الانتقاء الخالص، أي التخلي عن كل محسوس<sup>(٩)</sup>.

وقد قسم ديربليو، صاحب كتاب **المكتبة الشرقية**، التاريخ إلى مقدس، ويمثله المسيحيون واليهود، وذيس يمثله المسلمون، ومن ثم فالمسيحية واليهودية في نظره تنتمي إلى جغرافيا متطورة، بعكس الإسلام الذي ينتمي، في نظره، إلى جغرافيا متخلفة. أما غوستاف فون غرونباوم، فقد أنتج أعمالاً ضخمة حول الإسلام كرسها لإنكار انتماء الإسلام إلى أي حضارة أو دين، ففي رأيه أن الإسلام عاجز ومغلق وغير قابل للتطور. أما ماكس فيبر في كتابه **الإسلام والرأسمالية**، فقد اعتبر أن الإسلام لا يحتوي على أي أخلاق تتفق أو تتلاءم مع الروح الرأسمالية، أما المجتمع المسلم فهو مستبد ولا عقلاني. أما برنارد لويس في كتابه **عودة الإسلام**، فقد اعتبر أن الإسلام لا يتطور كما هو حال المسلمين، بل إن المسلمين خائفون ويجب وضعهم دائماً تحت الرقابة<sup>(١٠)</sup>.

يعتبر الاستشراق أحد مظاهر عصر النهضة والتنوير والعقلانية في أوروبا، وأحد تفرعات الوضعية المادية والتاريخانية الأوروبية، التي ارتأت أن تنظر إلى الشرق ممثلاً بمنظومته الثقافية والتراثية والحضارية، وإلى ما وصل إليه من إنجازات في السياسة، والفن والمعمار والأدب<sup>(١١)</sup>. كانت دراسات استشراقية كثيرة قام بها مستشرقون غربيون ذات طبيعة إثنوغرافية وأثنوبولوجية، حيث قام أرنست غلنر بدراسة مجتمعات البداوة المغاربية التي اقترنت في ظلها البنى السياسية والاجتماعية والثقافية والنظام الإيكولوجي مع الإسلام، لينتج في النهاية حياة صوفية تميل إلى التقشف والبساطة والنظام الاجتماعي المغلق<sup>(١٢)</sup>. هذا أيضاً ينطبق على مستشرقين آخرين قاموا بدراسة جغرافية شبه الجزيرة العربية كحاضنة طبيعية للإسلام، مركزين جهودهم كلها على افتراض أن البداوة والترحال والاستقرار لا تساعد كثيراً في إنتاج الأمل الصافي والميثولوجيا والتفكير العميق والإحساس بالعمارة والإبداع والابتكار<sup>(١٣)</sup>. وهم عند تناولهم موضوع الحضارة العربية الإسلامية ينزعون عنها صفة الحضارة الشاملة لادعائهم أن الحضارة الإسلامية احتوت في باطنها على جوانب مثالية/طوباوية وروحانية جاءت على حساب العوامل المادية التطويرية، وبالتالي بقي تركيز هؤلاء المستشرقين على المظاهر

(٩) إبراهيم أبو الهيجاء، «الأسس الإسلامية للتنمية: الشورى كنموذج»، (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، ٢٠٠٤)، ص ٤٠.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٤٢.

(١١) محمد أركون [وآخرون]، **الاستشراق بين دعائه ومعارضيه**، [ترجمة هاشم صالح] (بيروت: لندن: دار الساقى، ٢٠٠٠)، ص ٢١.

(١٢) عبد الله عبد الرحمن يتيم، «من المحرث إلى الكتاب: في حوارية أرنست غلنر مع العرب والإسلام»، مجلة **الاجتهاد**، السنة ٣، العدد ٥١ (٢٠٠١)، ص ١٢٦ - ١٢٧.

(١٣) محسن الموسوي، **الاستشراق في الفكر الغربي** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٣)، ص ١٦٩ - ١٧٨.

الاجتماعية والاقتصادية من دون الغوص في أصول العقيدة ومتطلبات الفقه<sup>(١٤)</sup>.

يذهب غرونباوم في كتابه **الإسلام الحديث** إلى حد الادعاء أن الحضارة الإسلامية تقف قاصرة اليوم أمام المشروع العلمي الحدائثي الذي يجسد العقل والتفكير والنزاهة العلمية والانفتاح على الآخر. إنه المشروع الذي يختزل في داخله كل شيء مفيد وقيم للمجتمع الإنساني ككل، مثل الرأسمالية واقتصاد السوق والديمقراطية وحقوق الإنسان والتقدم العلمي والتقني والعلمانية، وتقييد تدخل الدين في خصوصيات المجتمع والبناء المؤسساتي. في المقابل يقف المشروع الغربي الحضاري منتصباً، لأن المثقف الغربي يصارح نفسه ومجتمعه بما يتصل بالحقائق الكونية والوجودية التي يستطيع أن يتعامل معها بطريقة علمية ومحيدة، أما المثقف العربي والمسلم، بحسب ادعاء هذا المستشرق، من أمثال ساطع الحصري وطه حسين ومحمد حسين هيكل والعقاد، فهم جميعاً يضعون التاريخ والحوادث التاريخية المنتقاة بما يتلاءم مع الصورة التي شكلها المسلمون حول دينهم وذاتهم<sup>(١٥)</sup>. مرة أخرى يظهر غلنر ليعلم أن التدين الإسلامي مال بشكل مباشر إلى تمجيد الشخصية والكاريزما وتأليههما، حيث ركز، حسب ادعاءات غلنر، على الشعائر والطقوس والعبادات بعيداً عن النصوص العلمية والقانونية الوضعية التي تخاطب العقل. يتوغل غلنر في هجومه الناعم على الإسلام ليخرج في نهاية الأمر بنتيجة مفادها أن المجتمع الإسلامي الأول، أيام مكة والمدينة، جسد درجة كبيرة من الطهارة والرفعة والتقشف، وكان هناك شيوع للأدب التوحيدي الرصين الذي يتمحور حول الانتساب على آل البيت والإيمان بالغيبات<sup>(١٦)</sup>.

بالنظر إلى العقود الأخيرة المنصرمة، نجد أن الإسلام والمسلمين احتلوا حيزاً كبيراً في الإعلام الغربي، كما أن نظريات التنمية السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي ولدت وتأصلت في الغرب بقيت تعكس وحتى الآن الأنا الغربية الفوقية ودونية الآخر القادم من الشرق. هذه الأفكار انطلقت في مجملها من مناهج ومدارس نظرية مختلفة في الاستشراق وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والعلوم السياسية والدراسات الثقافية والتراثية والحضارية. وبالمحصلة النهائية أجمعت هذه العلوم والدراسات النظرية على أن حتمية التطور والتقدم والسير باتجاه التحضر والتمدن تمر من خلال المادية الغربية والمنهجية الغربية العقلانية. وعند الكثير من الغربيين، بمن فيهم المفكرين والإنتلجنسيا والسياسيين والباحثين والأكاديميين ورجال المال والإعلام، تختلط صورة الإسلام والمسلمين مع الشرق وسلبياته، وعدم قدرته على الإبداع والاختراع والتغيير. فالإسلام دين أصولي قائم على أساس التعبير الحر في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، كما أن المسلمين مجموعة من الغوغاء والرعاع والمتخلفين الرجعيين الذين يعشقون الحروب ويميلون إلى الدموية وإلغاء الآخر.

(١٤) المصدر نفسه.

(١٥) أركون [وآخرون]، الاستشراق بين دعائه ومعارضيه، ص ٢٢٧.

(١٦) سامي زبيدة، أنثروبولوجيات الإسلام: مناقشة لأفكار أرنست غلنر (بيروت: دار الساقي، ١٩٩٧)، ص ١١.

اختلف هؤلاء المهتمون بهذه الظاهرة، فبعضهم نعت الإسلام بالأصولية (Fundamentalism) بينما استخدم آخرون مصطلحات أكثر حدة أو أكثر نعومة بناء على الموقف والسياق العام، كالإسلام السياسي (Political Islam)، والإحيائية الإسلامية (Islamic Revivalism) أو إعادة الانبعاث الإسلامي (Islamic Resurgence)<sup>(١٧)</sup>.

جاء كتاب إدوارد سعيد *تغطية الإسلام* في وسائل الإعلام الغربية ليفضح القراءة الغربية للإسلام، وليسلط الضوء على قضايا في غاية الأهمية تواجه مستقبل العرب والمسلمين في هذا الزمن. في هذا الكتاب يورد سعيد أدلة وبراهين تظهر أن اهتمام الغرب عموماً بالإسلام والعروبة قد ازداد في أعقاب حدثين مهمين هما: الثورة الإسلامية في إيران وانطلاقة الإسلام الجهادي في أفغانستان في أعقاب دخول القوات السوفياتية إلى أفغانستان؛ كلا الحدثين وقع في العام ١٩٧٩. وجاء كتاب سعيد في سياق أحداث دولية وإقليمية مهمة بهدف وصف النظرة والتنميط الغربي السردى عن الإسلام، أي اعتماد النصوص الجاهزة التي زُرعت وغُرست في عقول ونفوس العديد من المفكرين والمستشرقين ورجال الإعلام الغربيين لوصف الظاهرة الإسلامية بعيداً عن الموضوعية والحياد والعقلانية. هذه الظاهرة وصفها سعيد بالنمطية (Stereotyping) السردية التي لا تبحث عن الحقيقة وإنما تنميط الآخر بهدف هزيمته معنوياً ونفسياً واغتيال شخصيته الأخلاقية<sup>(١٨)</sup>.

دأب الغرب - أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية والولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب، على النظر إلى الشرق المتخلف والمتأخر وغير القابل للتطور ليس على أنه مرتبط بآسيا أو أفريقيا، لكنه مرتبط بالإسلام والعرب بدرجات أكبر. ومما زاد في عدائية الغرب للإسلام والمسلمين هو وقوف الدولة الإسلامية، خاصة أيام الدولة العثمانية، أمام المخططات الغربية الاستعمارية والإمبريالية التي كانت تستهدف استعمار الشعوب ونهب ثرواتها<sup>(١٩)</sup>. لقد ارتبط الإسلام في الفكر الغربي بجميع المفاهيم والمصطلحات الثابتة التي لا تعكس الحقيقة، وإنما فيها تحامل وتجنُّ عظيمان، إذ دأب الإعلام الغربي على تصوير الإسلام بأنه «الدين الشيطاني» (Demonic Religion) لأنه يوفر بيئة خصبة لنشأة ونمو الحركات الأصولية المتطرفة كالجهاد الإسلامي وحزب الله وحركة حماس، هذه الحركات بالمنظور الغربي هي حركات إسلامية متزمتة تهدف إلى إقامة نظام إسلامي مفلق لا يعترف بالتعايش مع الغرب، وغير قادر على التعايش مع الأقليات الدينية والمذهبية واللغوية التي تعيش في المجتمعات الإسلامية<sup>(٢٠)</sup>.

لقد ارتبط الإسلام بمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وارتأى البعض أن ينظر

(١٧) Bassam Tibi, *Islam Between Culture and Politics* (New York: Palgrave, 2001), pp. 84-86.

(١٨) إدوارد سعيد، أوسلو ٢: «سلام بلا أرض» (القاهرة: دار المستقبل، ١٩٩٥)، ص ١٠٠ - ١١٠.

(١٩) Edward Said, *Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World* ([n. p.]: Random House, 1981), [p. 1].

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

إلى المنطقة على أنها استثنائية غير قابلة للتجاوب مع موجات الديمقراطية والبرلة والانفتاح، كما أن هذه المنطقة غير مرشحة لأن تكون مركزاً للإنجازات الثقافية والحضارية العظيمة. إن الإسلام في العقلية الغربية غير قابل للتطور أو التغيير، لأن روح الإسلام لا يمكن أن تلتقي مع روح وأخلاقيات النظام الرأسمالي، القائم على المنافسة والتعددية والعقلانية، أما المجتمع الإسلامي فهو مجتمع مغلق مستبد غير عقلاني، تذوب فيه النوازع الفردية ويكون الصوت النهائي المسموع فيه للقيم المجتمعية المتخلفة التي تعلي من شأن الطاعة والقبيلة والعشيرة والأصل المرابطي والتراتبية الاجتماعية، حتى أن برنارد لويس، المستشرق المعروف، ذهب إلى حد القول إن الإسلام لا يتطور، وإن المسلمين خائفون من أي عملية تغيير أو تطور، لأن المسلمين، مثلهم مثل الشعوب الشرقية الأخرى التي وقعت تحت الاستعمار، عاجزون عن قول الحقيقة ومواجهة الواقع، فهم مدمنون على الخرافات والأساطير والتاريخ الكاذب<sup>(٢١)</sup>.

ليس غريباً أن يجد المرء في القاموس الغربي الذي يعتمد النمطية الوصفية كلمات ومصطلحات تنم عن العدائية، مثل الرعب والخوف من الإسلام (Islamic Phobia) أو الخطر الأخضر (Green Threat). فهذه المصطلحات تعكس عقلية النخبة السياسية والإعلامية الغربية، ولا تعبر بالضرورة عن توجهات الشعوب الغربية في أوروبا وأمريكا، فهذه الشعوب تأخذ من الوجبات الإعلامية الغربية التي أنتجت بشكل منمق ومنسق لتعكس العلاقة التحالفية بين المال والسياسة والإعلام لتدجين الشعوب وتشويه الآخر.

لذا تكمن المعضلة الكبرى في حجم هذه العلاقة، وفي أحادية الأطروحات والرؤى الإعلامية التي تشن حرب مصطلحات ومفاهيم وصور وسرديات بحيث يتم تنميط الأحداث الصغيرة التي تحدث بشكل اعتيادي، وإعطاؤها صبغة الحدث العظيم أو الخطر الكبير، الذي يهدد مستقبل البشرية عموماً. لقد تمت «شيطنة» الإسلام في الإعلام الغربي، وفي كتابات المؤلفين وكتبة الأعمدة الصحفية، إلى درجة أن الإسلام يمثل اليوم علاقة العداة الرئيسية مع الغرب. هذه التعميمات والتوليفات الشيطانية أطلقت العنان لظهور مفاهيم جديدة استفادت من سياق الأحداث الذي يمر بها العالم، «كصدام الحضارات» ونهاية التاريخ» «والخطر الأخضر» «والسلفية الجهادية» وغيرها الكثير<sup>(٢٢)</sup>.

## ثانياً: الأصولية الإسلامية وإشكالية المصطلح

الإسلام عقيدة وأيديولوجية معروفتان بشكل جيد، وهو دين عالمي يعتنقه أكثر من مليار وربع المليار مسلم ينتشرون في مناطق مختلفة حول العالم، ففي العالم المعاصر يشكل المسلمون أغلبية السكان في أكثر من ٤٥ دولة تمتد من أفريقيا والشرق الأوسط إلى جنوب

(٢١) سعيد، أوصلو ٢: «سلام بلا أرض»، ص ٣١٤ - ٣١٥.

(٢٢) Said, *Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World*, p. 103.

آسيا وأواسطها، إضافة إلى نمو أعداد المسلمين في الهند والصين وأوروبا وأمريكا<sup>(٢٣)</sup>، يتطلع الإسلام ويسعى إلى تطوير واستيعاب التركيبات الاجتماعية المتباينة لجموع المسلمين الذين يعيشون في مجتمعات متباعدة ومتباينة في مظاهر حياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية واللغوية والثقافية. وكما هو معروف، فإن الإسلام يهدف دائماً إلى بناء مجتمعات متعددة الجنسيات والثقافات تذوب فيها الولاءات الضيقة للعرق واللون واللغة والتاريخ وغير ذلك من مظاهر الاختلاف، بحيث تخضع هذه المجتمعات إلى إرادة الرسول الكريم (ﷺ) وتقبل به كموضح ومفسر للوحي.

ويعرّف ديني (Denny) الإسلام بأنه مزيج معقد وفعال من الشعوب والأجناس والحركات والأهداف، بحيث يعيش المسلمون في مجتمعات محلية، وبأنماط حياة مختلفة بعيداً عن سيطرة مركزية لدولة واحدة<sup>(٢٤)</sup>، فالتواصل الإنساني التضامني بين المسلمين أنفسهم يتم نتيجة لامتلاك المجتمع المسلم القدرة على حل التغيرات واستيعاب التطورات والأوضاع الجديدة والأمور المستجدة التي تواجه الأمة، من خلال تفعيل وتطبيق الاجتهاد والاستدلالات المنطقية لعلماء الأمة<sup>(٢٥)</sup>. فبواسطة الاجتهاد يمتلك الإسلام كديانة وكنسفة حياة القدرة المطلوبة واللازمة ليواجه ويستجيب للتغيير المجتمعي، محافظاً على تعاليم القرآن وأصول الفقه والتشريع الإسلامي المستمدة من أحاديث الرسول الكريم (ﷺ).

لهذا فإن مصطلح الأصولية، بأصوله ومنابعه غير الإسلامية والمتمثلة بالحركة البروتستانتية المسيحية في بداية القرن العشرين، ليس له أي مكان في المنهج والسياق الإسلاميين، وهذا ليس فقط بسبب الإرث المسيحي وطبيعة المصطلح، ولكن أيضاً بسبب الربط السلبي والناقص الذي توصف به الظاهرة الأصولية بشكل مسبق<sup>(٢٦)</sup>، فالكثيرون يعتقدون أن مصطلح «الأصولية الإسلامية» استخدم بشكل متعمد ومقصود وغير أمين ليحرف ويشوّه ويعكس صورة خاطئة عن الظاهرة الإسلامية المعاصرة. لقد حاول الغرب منذ فترة طويلة إصاق هذه التهمة بالمسلمين، أي تصوير المسلمين بأنهم من محبي الإرهاب ومشجعي العنف، ولهم دور في اضطهاد الأديان، ومصادرة الآراء والحريات، وكبت حرية المرأة ومعاداة الحضارة الغربية<sup>(٢٧)</sup>. ساعدت السيطرة الغربية الإعلامية على تعميم فكرة الإسلام الأصولي والمسلمين الأصوليين القائمين على إنشاء صرح من التطرف والتشدد والتزمت والتعصب، وقد فسر العديد من المراقبين الغربيين الإسلام على أساس

Ali Kettani, *Muslim Minorities in the World Today* (London: Mansell for Institute of Muslim Minority Affairs, 1986), p. 241.

Frederick Denny, *An Introduction to Islam* (New York: Macmillan, 1993). (٢٤)

(٢٥) المصدر نفسه.

(٢٦) محمد فاروق الزين، *المسيحية والإسلام والاستشراق* (دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر،

٢٠٠٠)، ص ٢٨١.

(٢٧) المصدر نفسه.

أنه ديانة أيديولوجية أصولية تخفي في مكنونها مشروعاً أيديولوجياً عقائدياً معادياً للمشروع الغربي<sup>(٢٨)</sup>.

في الثمانينيات من القرن العشرين، أصبح الإسلام السياسي الناشط أو الأصولية الإسلامية مرادفة، بالنسبة إلى المحللين الغربيين وصانعي القرارات والسياسات ووسائل الإعلام الغربية، للتطرف والإرهاب وأزمات الرهائن والتفجيرات الانتحارية وقتل السياح الأجانب<sup>(٢٩)</sup>. لذلك يقف فردريك ديني ضد استخدام مصطلح الأصولية، لأنه مصطلح خاضع للجدل والخلاف بسبب حقيقة أنه لا يمكن لإنسان أن يكون مسلماً إلا إذا تمسك بأصول الإسلام. فهو يقول في هذا الصدد: «استخدم مصطلح الأصولية بشكل واسع في السبعينيات، ليصف أشكالاً متعددة من الإحيائية الإسلامية. وتعود أصول هذا المصطلح إلى بداية القرن العشرين، حيث استخدم لوصف المحافظين المتطرفين من المثقفين المسيحيين الذين طرحوا قائمة من الأصول التي يجب على المسيحيين الحقيقيين أن يتبعوها. وبسبب الأصول الأمريكية البروتستانتية للمصطلح، فإن الكثير من المراقبين المسلمين وغير المسلمين يعتقدون أنه يجب ألا يستخدم هذا المصطلح لوصف ظاهرة الصحوة الإسلامية»<sup>(٣٠)</sup>.

ويعتقد الخبير الأمريكي الرئيسي والمؤرخ لجماعة الإخوان المسلمين في مصر، ريتشارد ميتشل أيضاً أنه لا يوجد مصطلح مكافئ حقيقي لمصطلح الأصولية في اللغة العربية، ملمحاً إلى عدم شرعية استخدامه بالنسبة إلى الإسلام<sup>(٣١)</sup>. وبحث متخصص آخر قضية هذا المصطلح وناقش قائلاً: «ليس من الحكمة أن تجلب تصوراً مسبقاً لفئة معينة لتطبقه على ظاهرة الحركات الإسلامية، خاصة عندما تتفحص وتطلع على التقاليد الدينية غير الإسلامية»<sup>(٣٢)</sup>.

ويقول العالم اللاهوتي الكبير جيمس بار إن الأصولية كلمة سيئة، والناس الذين تلتصق بهم لا يحبون أن يوصفوا بها، إنها غالباً ما تفهم على أنها كلمة عدائية شائنة توحى بالتحجر والتضييق والظلامية والتخلف والتزمت الطائفي<sup>(٣٣)</sup>. ويفضل روبن رايت استخدام مصطلح الإسلاميين والإسلاموية ككلمة أكثر دقة لوصف المحاولات التفسيرية الإبداعية

(٢٨) المصدر نفسه.

(٢٩) Robin Wight, «Islam New Political Face,» *Current History*, vol. 90, no. 552 (January 1991), p. 25.

(٣٠) Mohammed Choudhary and Michael Berdine, «Islamic Resurgence and Western Response,» *American Journal of Islamic Social Sciences*, vol. 11, no. 4 (Winter 1994), p. 549.

(٣١) Barbara Stowasser, ed., *The Islamic Impulse* (Washington, DC: Center for Contemporary Arab Studies, 1987), p. 79.

(٣٢) Ninian Smart, «Three Forms of Religious Convergence,» in: Richard Antoun and Mary Hegland, eds., *Religious Resurgence: Contemporary Cases in Islam, Christianity and, Judaism* (New York: Syracuse University Press, 1987), p. 223.

(٣٣) Surendra Chopra, «Islamic Fundamentalism and Pakistan's Foreign Policy,» *India Quarterly*, (٢٣) vol. 49, no. 192 (January-June 1993), p. 3.

المتطلعة لبناء نظام اجتماعي اقتصادي ذي طبيعة إسلامية<sup>(٣٤)</sup>. علاوة على ذلك، يفضل بعض الكتّاب المتخصصين بالشرق الأوسط وخبراء الشؤون الدينية استخدام المصطلحات «الإحيائية»، «الصحو»، «النهضة» لوصف هذه الحركات الإسلامية التي تنادي بدور أكبر للإسلام السياسي، فهذه الجماعات حريصة على إحياء الإسلام وتجديده بشكله الأصلي الكامل وفقاً لتصوراتهم وفهمهم<sup>(٣٥)</sup>.

أما الخبير بالشؤون الإيرانية إرفاند أبراهاميان، فهو في حيرة من أمره، إذ إنه ضد استخدام مصطلح «الأصولية» في العالم الإسلامي المعاصر، بسبب أصولها البروتستانتية الأمريكية، لكنه يتابع أن الخميني وأنصاره لم يستطيعوا إيجاد كلمة مرادفة في العربية أو الفارسية على كل حال، فصاغ أتباع الخميني وأنصاره كلمة جديدة هي «بونيا داغاريان» بمعنى الأصول<sup>(٣٦)</sup>. ويعتبر الإسلاميون الإيرانيون أنفسهم ملتزمين وملتصكين بأصول الإسلام، على عكس الآخرين الذين أضلتهم المفاهيم الأجنبية والتشويه التاريخي للقرآن والأحاديث النبوية والشريعة الإسلامية وتعاليم الإثني عشرية<sup>(٣٧)</sup>.

لم يُستخدم مصطلح الأصولية لوصف الحركات الإسلامية المعاصرة فقط، وإنما تم تجييره لوصف دول معينة في الشرق الأوسط مثل ليبيا والسعودية وإيران؛ ففي ليبيا أعطى القذافي نفسه حق إعادة تفسير الإسلام، وشكك في السنّة النبوية، حيث إن خطبه وآراءه كلها موجودة في الكتاب الأخضر. أما في السعودية، فهناك تحالف بين العائلة المالكة وعلماء ورجال الدين من أجل استمالة المحافظين والمعتدلين المسلمين حتى يتم إعطاء غطاء من الشرعية على النظام الملكي المحافظ<sup>(٣٨)</sup>. على كل حال لم تروّج السعودية لهذا النوع من الإسلام الأصولي المتشدد، لأنه من الممكن أن يتعارض ذلك مع علاقاتها الخارجية، ومع أسس تعاملها مع العالم الغربي، ولاسيما الولايات المتحدة وأوروبا. أما إيران فكانت في عهد الخميني شديدة النقد والإدانة للغرب، وتعد أمريكا في عيون الإيرانيين، وفي قلوبهم، العدو الأول للإسلام، وبسبب ذلك توصف إيران في الأدبيات ووسائل الإعلام الأمريكية والغربية بأنها أصولية إرهابية واقعة تحت تأثير مبادئ الخميني، وأفكاره الصدامية<sup>(٣٩)</sup>.

Robin Wright, «Islam Democracy and the West,» *Foreign Affairs*, vol. 71, no. 3 (1992), pp. 131-145. (٢٤)

Zohurul Bari, «Islamic Revival in the Gulf: An Overview,» *International Studies*, vol. 31, no. 1 (January-March 1994), p. 50. (٢٥)

Sadik Alazm, «Islamic Fundamentalism Reconsidered: A Critical Outline of Problems, Ideas and Approaches,» *South Asian Bulletin*, vol. 13, nos. 1-2 (1993), p. 94. (٢٦)

Ibn Warraq, «Yes! Islam Can Be Reformed,» *Free Inquiry*, vol. 24, no. 3 (April-May 2004), p. 28. (٢٧)

Riza Sihbudi, «Islamic Fundamentalism and Democratization in the Middle East,» *Iranian Journal of International Affairs*, vol. 6, nos. 1-2 (1994), p. 120. (٢٨)

Shusha Guppy, «The Failure of Islamism,» *World and I*, vol. 17, no. 11 (November 2002), p. 225. (٢٩)

## ثالثاً: أسباب صعود المد الأصولي الإسلامي

يُرجع بعض المصادر أسباب ظهور الإسلام السياسي والإحيائية الإسلامية إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حين ظهر العديد من المفكرين والمجددين الإسلاميين من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا، حيث قام تيار الاجتهاد الإسلامي ليتعامل مع العالم المتطور المحيط بهم<sup>(٤٠)</sup>. وقد اعتقد الإصلاحيون الإسلاميون أن الشعوب الإسلامية كانت تعيش في أوضاع بائسة جداً لأن حكوماتهم كانت ضعيفة وغير قادرة على حمايتهم من التدخلات الأجنبية. واعتقد هؤلاء أن الطريقة المثلى لمعالجة أوضاع البلاد الإسلامية إنما تكمن في الدمج العقلاني بين العلم والدين، وفي الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الشاملة التي تقوم على وضع الدساتير العصرية والأصيلة، وفي تفعيل المؤسسات العلمية والتعليمية<sup>(٤١)</sup> إضافة إلى ذلك، ركّز الدارسون والباحثون الغربيون المتخصصون بالإسلام على مجموعة أخرى من العوامل والأسباب التي تقف وراء الظاهرة الإسلامية المعاصرة، ومن أهمها:

أ – أزمة الإسلام المعاصر التي تكمن في الربط بين الإسلام كديانة من جهة ونجاحه العالمي العظيم من جهة أخرى؛ ففي خلال قرن واحد بعد فتح مكة (٦٣٠م) امتد النفوذ الإسلامي إلى مساحات شاسعة امتدت بين المحيط الأطلسي غرباً والصين شرقاً. وعاش المسلمون حياة رفاهية وازدهار وقوة في وقت كانت فيه أوروبا تعيش في سبات عميق. هذه النعمة الربانية التي عاش في ظلها المسلمون بدأت تتغير منذ القرن الخامس عشر، إذ أخذت أوروبا في النهوض شيئاً فشيئاً ناشرة لأفكارها ومؤسساتها وانتصاراتها العسكرية والتكنولوجيا التي توصلت إليها في كل مكان، لذلك يعتبر البعض أن المد الإسلامي المعاصر ما هو إلا ردة فعل معنوي ونفسي على الغزو الأوروبي لمجتمعات المسلمين وللنكسة الحضارية الكبيرة التي تعانيتها الدول والشعوب الإسلامية. فبعد أن كان المسلمون أسياد العالم وقادته أصبحوا اليوم من ضحايا التدخلات الخارجية الأمريكية والغربية<sup>(٤٢)</sup>.

ب – من أسباب الصحوحة الإسلامية المعاصرة الهزائم العسكرية المتتالية التي عانت منها الدول الإسلامية على يد الدول الغربية المسيحية منذ القرن التاسع عشر، وقد توجت هذه الفترة بتفكك الخلافة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى. وأدى قيام الكيان اليهودي في فلسطين عام ١٩٤٨ إلى تأجيج عواطف المسلمين اتجاه أوروبا والغرب، فإسرائيل التي تُعتبر مشروعاً أوروبياً – أمريكياً في قلب العالم الإسلامي ساهمت مباشرة في انبعاث

Elie Kedourie, *Afghani and 'Abduh: An Essay on Religious Unbelief and Political Activism in Modern Islam* (London: Frank Cass, 1966), pp. 1-66.

Aziz Al-Azmeh, «Islamist Revivalism and Western Ideologies», *History Workshop Journal*, vol. 32 (٤١) (Autumn 1991), pp. 45-53.

Daniel Pipes, «This World is Political, the Islamic Revival of the Seventies», *Orbis*, vol. 24, no. 1 (٤٢) (Spring 1980), p. 19.



المشاعر الجماعية والتضامنية لدى المسلمين<sup>(٤٣)</sup> وسبق لنا بليون بونا برت أن وجه في أثناء حملته على الشرق عام ١٧٩٩ نداء إلى اليهود قال لهم فيه «أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، إن فرنسا تقدم لكم يدها، حاملة إرث إسرائيل يا ورثة فلسطين الشرعيين»<sup>(٤٤)</sup> كما أن المسلمين لا ينسون أن الدول الأوروبية الاستعمارية، وبالتحديد بريطانيا وفرنسا، قامت بتقسيم المشرق العربي إلى دويلات صغيرة ومتناثرة في معاهدة سايكس - بيكو عام ١٩١٦.

يعد عام ١٩٦٧ عاماً كارثياً للعرب والمسلمين، ونقطة تحول مفصلية لتاريخ الصراع العربي - الإسرائيلي في المنطقة، إذ هزمت إسرائيل «أعداءها العرب» في حرب الستة أيام، واحتلت مرتفعات الجولان والضفة الغربية وغزة وشبه جزيرة سيناء<sup>(٤٥)</sup> وشكل احتلالها للقدس ضربة موجعة وقاسية ومدمرة للعزة والاحترام الذاتي العربي والإسلامي، حيث تحولت قضية فلسطين وتحرير القدس من قضية عربية إقليمية إلى قضية إسلامية عالمية تخص جميع مسلمي العالم<sup>(٤٦)</sup>.

ج - جاءت الحركة الإحيائية الإسلامية في السبعينيات والثمانينيات كرد فعل على فشل مجموعة من التجارب القومية والاشتراكية في العالم العربي في مرحلة ما بعد التحرر من الاستعمار الأجنبي، إذ فشلت الناصرية في مصر، والبعثية في سوريا والعراق، والاشتراكية الإسلامية في ليبيا والجزائر، والاشتراكية الماركسية في اليمن الجنوبي<sup>(٤٧)</sup>، وعلى المستوى السياسي فشلت التوليفة العلمانية المعاصرة في العالم الإسلامي، فلا القوميون الليبراليون ولا الاشتراكيين القوميون استطاعوا أن يفوا بوعودهم والتزاماتهم تجاه دولهم وشعوبهم. لم تكن الحكومات في الدول الإسلامية مهتمة بإيجاد شرعية سياسية لها، وكانت بدلاً من ذلك حكومات أبدية استبدادية واقعة تحت سيطرة الملوك والانقلابيين من العسكر والجيش. أما الأحزاب السياسية، فكانت محظورة أو محدودة النشاط، وكانت الانتخابات غير نزيهة أو شكلية، إضافة إلى شيوع ظواهر الفساد المالي والإداري، وسوء توزيع الثروة بين الأغنياء والفقراء. وقد رفضت الحركات الإسلامية تبني الماركسية والرأسمالية على اعتبار أن الماركسية اعتمدت على عقيدة مادية وإلحادية، فضلاً عن أن الرأسمالية أفرزت نخبة

Mona Abul-Fadel, «From Greed to Justice: American Policy in the Middle East Reflections from (٤٣) Muslim Perspective.» *American Journal of Islamic Social Sciences*, vol. 9, no. 1 (Spring 1992), pp. 91-94.

(٤٤) محمد عمارة، *الإسلام والآخرون من يعترف بمن؟ ومن ينكر من؟* (القاهرة: دار الشروق الدولية، ٢٠٠٤)، ص ١٢١.

Margot Patterson, «Islamic Fundamentalism Feared, Misunderstood.» *National Catholic Reporter*, vol. 40 (October 2004), p. 18.

Nazih Ayubi, *Political Islam, Religion and Politics in the Arab World* (London; New York: (٤٦) Routledge, 1993), p. 59.

Wolfgang Schwantiz, «Islamic Fundamentalism Since 1945.» *Middle East Policy*, vol. 12, no. 3 (٤٧) (October 2005), p. 157.

جديدة، ومجتمعاً استهلاكياً ومادياً<sup>(٤٨)</sup> لذلك نجح الإسلاميون في استقطاب الشارع العربي من خلال تركيزهم على قضايا البطالة والفقر والتوزيع غير العادل للثروة، وعلى الأنظمة السلطوية التسلطية<sup>(٤٩)</sup>.

د - اكتشاف النفط بكميات تجارية ضخمة في منطقة الجزيرة العربية، الحاضنة الطبيعية للإسلام، حيث اعتبر بعض المسلمين أن النفط إشارة لعودة قوة الإسلام ليحتل مكانه بين أمم العالم كقوة مركزية في السياسة العالمية<sup>(٥٠)</sup> هنالك العديد من العوامل التي عززت الطبيعة الإسلامية لقوة النفط، لأن معظم الثروة النفطية هي في قلب العالم الإسلامي، حيث تلقى الرسول الكريم (ﷺ) وحي القرآن من الله، وأسس بذلك أول مجتمع إسلامي في جزيرة العرب. استخدمت عائدات النفط - ولو بطريقة جزئية - في دعم وتعزيز حضور المنظمات الإسلامية العالمية الداعية للإسلام، والقائمة على نشره في مختلف بقاع المعمورة، حيث ازدادت أعداد المنظمات الإسلامية والسلفية والدعوية التي أصبحت تجوب الأرض شمالاً وجنوباً، مبشرة بعودة قوة الإسلام، إضافة إلى بناء وتدشين عشرات بل مئات المساجد في كثير من بقاع الأرض، وبخاصة في آسيا الوسطى بعد انعتاقها من السطوة الروسية<sup>(٥١)</sup>.

هـ - صدم الاستعمار الثقافي الجديد في القرن العشرين المسلمين من خلال تغلغل القيم والسلوكيات غير الإسلامية في مجتمعاتهم، وخلق هذا صدمة نفسية عميقة عندما اكتشف المسلمون أنهم غير قادرين على مواجهة التيار الفكري العولمي الجديد القادم من الغرب، والمسلح بالأقمار الاصطناعية والتلفاز والفضائيات والحاسوب والإنترنت والمواد الإعلامية المطبوعة. وقد أحدث ذلك نوعاً من الفراغ الأيديولوجي والانهيال العقائدي، خاصة في أوساط الفقراء في المدن<sup>(٥٢)</sup>، لذلك أوجدت الصحوة الإسلامية على المستوى الثقافي الديني، بصورة خاصة، صيغة جديدة في تأكيد الهوية الحضارية والتراثية الإسلامية، وزادت درجة الوعي الإسلامي في مواجهة الاستغلال الاقتصادي والهيمنة السياسية والتدخل الثقافي وعملية غسل الدماغ الأيديولوجية<sup>(٥٣)</sup>. إن انتشار قوى العولمة المختلفة المسلحة بالتقنية الحديثة قد خلق إشكاليات ثقافية للمسلمين، حيث بدأت عملية البحث عن الذات الدينية والحضارية في سياق التحرك ضد النموذج الغربي المعولم القائم على مصادرة الخصوصيات والهويات.

Hugh Kennedy, *The Prophet and the Age of Caliphates* (London: Longman, 1986). (٤٨)

Richard Bulliet, «The Future of Islamic Movement,» *Foreign Affairs*, vol. 72, no. 5 (November-December 1993), pp. 38-39. (٤٩)

Pipes, «This World is Political, the Islamic Revival of the Seventies,» pp. 20-22. (٥٠)

Guppy, «The Failure of Islamism,» p. 226. (٥١)

Michael Eminsalla, «Islamic Fundamentalism: Its Consequences for the West,» *Islam and the Modern Age* (New Delhi), vol. 22, no. 1 (February 1991), pp. 27-29. (٥٢)

Choudhary and Berdine, «Islamic Resurgence and Western Response,» pp. 553-554. (٥٣)

## رابعاً: الغرب والأطروحات الفكرية للأصولية الإسلامية

إن ما يخيف الغرب اليوم هو أن المجددين الإسلاميين المعاصرين يطرحون أفكاراً وينادون بمبادئ وأيديولوجية تشكل تحدياً حقيقياً للغرب، وعلى مختلف المستويات. فصفة العالمية تلازم الإسلام الذي يرفض أن يميز بين البشر بحسب اللون والعرق واللغة وتباعد الجغرافيا<sup>(٥٤)</sup>. وتنسجم هذه العالمية مع شمولية الإسلام الذي ينظم شؤون الحياة الإنسانية وجوانبها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية. وعلى عكس الفكر الغربي المعاصر، الذي ينحصر في الفلسفة الوضعية، فإن الإسلام العقيدة هو معزز بمبدأ الحاكمية لله، والتي تعني تسليم أمور الحكم والتشريع المطلق لله وحده في الكون، فالكون حسب هذا التصور هو وحدة عضوية واحدة تعكس وحدانية الله المطلقة<sup>(٥٥)</sup>. إن النتائج المعرفية للإبستمولوجي الغربي الذي يتناول الإسلام وأطروحاته المعرفية كان دائماً يركز على الإنتاج الفكري والمعرفي للإسلاميين المعاصرين مثل حسن البنا وسيد قطب والمودودي، وكذلك المدراسي الذي ينتقد الغرب ومبادئه الوثنية وروحه المادية المبنية على الشهوة والرغبة في استخدام القوة لحل النزاعات، المفتقد للمعتقدات الدينية والرسائل الربانية<sup>(٥٦)</sup>. هذه «الجاهلية الجديدة»، التي يتصف بها الغرب أنتجت اضطراباً اجتماعياً وانحلالاً أخلاقياً وعدم مساواة اقتصادية وإفلاساً روحياً، إضافة إلى الدمار والتقسيم الطائفي والحروب الأهلية والتمييز العنصري<sup>(٥٧)</sup>. وذهب سيد قطب إلى حد القول إن الإسلام يمثل مشروعاً حضارياً في مواجهة مشروع جاهلي جديد يمثلته الغرب صاحب القيم الصعلوكية والمادية، وإن الإسلام وحده هو القادر على تقديم حلول لجميع الضوائق والأزمات الاجتماعية والدينية في المجتمع الإنساني، لأن هدف الإسلام العام هو بناء مجتمع إسلامي حقيقي<sup>(٥٨)</sup>.

هناك استهداف غربي لمفهوم الجهاد والثورة في الإسلام، على اعتبار أن الإسلام انتشر منذ القرن السابع حتى القرن الرابع عشر بطرق مختلفة، منها الجهاد بحد السيف. إن المفهوم القرآني للجهاد يعني النضال والكفاح ومجاهدة النفس في سبيل الله، وإن الهدف من الجهاد هو نشر الإسلام، وبناء مجتمع إسلامي على عكس المجتمعات الشيطانية الشريرة

Ibrahim Abu-Rabi, «Discourse, Power and Ideology in Modern Islamic Revivalist Thought: The Case of Sayyed Qutub,» *Islamic Culture* (Hyderabad), vol. 65, nos. 2-3 (April-July 1991), pp. 92-93.

Ahmed Mousalli, «The Views of Islamic Fundamentalism on Epistemological and Political Philosophy,» *Islamic Quarterly*, vol. 37, no. 3 (1993), p. 182.

(٥٦) أبو الحسن الندوي، *ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين* = *What the World lost by the Deterioration of the Muslims* (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٤)، ص ٢٦٠ - ٢٦١.

(٥٧) Lawrence Davidson, «Historical Dictionary of Islamic Fundamentalism in the Arab World, Iran, and Turkey,» *Middle East Policy*, vol. 7, no. 2 (February 2000), p. 209.

(٥٨) Abu-Rabi, «Discourse, Power and Ideology in Modern Islamic Revivalist Thought: The Case of Sayyed Qutub,» p. 93.

التي تعلي من مكانة الفسق والمادية والخلاعة. والجهاد بالقلب واللسان واليد والسيف هو من هذه الأدوات لتحقيق هذا الهدف<sup>(٥٩)</sup>.

بالنسبة إلى الإسلاميين، فإن التغير من الجاهلية الجديدة إلى الفضيلة الإسلامية يتطلب أداة استئصال الجاهلية الذي يمكن أن يتم من خلال ثورة عارمة تعتمد على الدعوة، خاصة أن الإسلام دين ثوري وتمرد في جميع مناحي الحياة. ينطلق الجهاد لتحقيق ألوهية الله وربانيتها، لذا فإن أي شخص أو نظام يقف في وجه حكم الله هو طاغ تصبح إزالته واجبة، فوظيفة الثورة الإسلامية هي تحرير البشرية من الحكومات والأنظمة والمجتمعات المبنية على القوانين الوضعية<sup>(٦٠)</sup>. وقد كانت الثورة الإسلامية التي انطلقت في إيران عام ١٩٧٩ ضد الفساد والنظام الدكتاتوري أحد الأمثلة على هدف الثورة في الإسلام<sup>(٦١)</sup>. وما يخيف الغرب هو أن النظرية التشريعية في الإسلام تقسم العالم إلى قسمين: دار الحرب ودار السلام، حيث تشمل الثانية المسلمين وحلفاءهم من غير المسلمين الذين يفضلون أن يبقوا معتنقين دياناتهم وشرائعهم مقابل دفع الجزية، أما دار الحرب فيجب إخضاعها للمنظومة الإسلامية، حيث من الممكن أن يصبح الجهاد واجباً شرعياً<sup>(٦٢)</sup>.

يناقش بعض المثقفين أن الإسلام كمنهج حياة سياسي يرفض بشكل واضح كل أشكال الديمقراطية والرأسمالية والاشتراكية والشيوعية. وفي حين أن المرتكز الأساسي للديمقراطية الليبرالية هو حكم الأغلبية وسيادة الشعب، ومرتكز الشيوعية هو دكتاتورية الحزب الواحد، فإن الديمقراطية في الإسلام تعني إقامة حكم الله وتأكيد سيادة شرعه المطلقة، وتعد الشورى ميزة وصفة جوهرية في النظام السياسي الإسلامي لاختيار قائد الأمة والمجلس الاستشاري والقادة التنفيذيين في الدولة<sup>(٦٣)</sup>.

بالعودة إلى الديمقراطية والإسلام، يناقش حامد عنایت — وهو مثقف إيراني بارز — أن الديمقراطية نظام سياسي تعددي عكس الدكتاتورية، لذلك فإن الإسلام متوافق مع الديمقراطية، لأنه لا يوجد مكان للحكومات الديكتاتورية في الإسلام. أما مبادئ السياسة الحكومية وبرنامجهما السياسي، فمنبثقة من شريعة القرآن والحديث، لامن إرادة الفرد

John Esposito, *Islamic Threat: Myth or Reality* (Oxford: Oxford University Press, 1992), p. 35. (٥٩)

Mousalli, «The Views of Islamic Fundamentalism on Epistemological and Political Philosophy,» (٦٠) p. 183.

Pervez Hoodbhoy, «The United States and Islam: Toward Perpetual War,» *Social Research*, (٦١) vol. 72, no. 4 (January 2005), p. 873.

Haris Proctor, «Islam and International Relations,» in: Majid Khadduri, ed., *The Islamic Theory of International Relations and Its Contemporary Relevance* (London: Pall Mall Press, 1965), pp. 28-29.

Ayatollah Khomeini, *Islam and Revolution*, translated by Hamid Algar (Berkeley, CA: Mizan Press, 1981), pp. 45-77. (٦٣)

الحاكم ورغباته<sup>(٦٤)</sup>. وفي الوقت نفسه يقول أبو الأعلى المودودي إن الإسلام يستخدم مصطلح الخلافة بدلاً من السلطة لأن الإسلام هو التمسك والالتزام بسلطة الله وحكمه. وهناك مدرسة فكرية معينة تقول إن الإسلام يعني ضمناً أنه ديمقراطي ليس بسبب الشورى فقط وإنما بسبب الاجتهاد والإجماع أيضاً. أما محمد آزاد – وهو مفكر إسلامي معتدل ومعروف – فيضع الفكرة على نحو أن مجلس الشورى في الإسلام يجب أن يكون ممثلاً حقيقياً لكل الرجال والنساء في المجتمع، وصفة التمثيل هذه يمكن أن تتحقق من خلال الانتخابات العامة والحرّة. حتى أن جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والعديد من المفكرين الإسلاميين البارزين قالوا إن الإسلام مبني على مفهوم الإرادة الحرّة للمجتمع<sup>(٦٥)</sup>. وكانت دعواتهم صريحة باتجاه الإصلاح السياسي والاقتصادي الشامل في الأقطار العربيّة والإسلامية من أجل استيعاب منجزات الحضارة الغربيّة، خاصة المادية والدينيّة، لأن ذلك لا يتعارض مع مبادئ الإسلام الذي يقوم على التواصل مع إنجازات الحضارات الأخرى.

في سياق آخر، تطبق الدولة العلمانية الوطنية قوانينها الخاصة، وتعتبر الدين شأناً روحياً خاصاً، في المقابل يستنكر الإسلاميون المضامين الجاهلية للوطنية، ويحبون دائماً أن ينظروا إلى قوة الإسلام المتمثلة بعالميته. تركز وجهة نظرهم هذه على التقسيم الشرعي الوحيد بين مجتمعات العالم على أساس انقسام شعوب الأرض بين منتمين إلى حزب الله وآخرين منتمين إلى حزب الشيطان، لذلك لا يصبح الأفراد أعضاء مقبولين في المجتمع إلا كمؤمنين ومسلمين<sup>(٦٦)</sup>. بالنسبة إلى أبي الأعلى المودودي، فإن مفهوم الوطنية عنده مفهوم قديم قدم الحضارة الإنسانية نفسها، والقرآن لا يبرر ولا يُعطي أي شرعية لأي رابطة وطنية أو لغوية أو عرقية أو اقتصادية أو إقليمية على حساب الرابطة الدينية التضامنية. فقد حارب النبي الكريم (ﷺ) العصبية القومية للعرب، ليمهد الطريق لرسالة الإسلام العالمية، وإذا حدث أن وجد تمايز وتفاضل بين البشر، فإنه يدور حول التوحيد والشرك والإسلام والإيمان<sup>(٦٧)</sup>. وقد رفض سيد قطب القومية العربية بسبب أسسها النظرية الضيقة، فبحسب رأيه أن الله اختار الجزيرة العربية مهدياً لرسالته الأخيرة، وليس لذلك أي علاقة بالميزات القومية للمواطنين العرب في الجزيرة العربية، وإنما سبب الاختيار هذا مرتبط بغياب الدولة المركزية، والإكراه، والإلزام السياسي في الجزيرة العربية، حيث إن العوامل المناخية والإيكولوجية والطبيعية الصحراوية للجزيرة العربية ساعدت في انتشار القبليّة والترحال

(٦٤) Hamid Enayat, *Modern Islamic Political Thought* (Austin, TX: University of Texas Press, 1982).

(٦٥) Alazm, «Islamic Fundamentalism Reconsidered: A Critical Outline of Problems, Ideas and Approaches,» p. 123.

(٦٦) سيد قطب، في **ظلال القرآن** = *Under the Aegis of the Quran* (بيروت: دار الشروق، ١٩٨١)، ص ١٨٦٦.

(٦٧) أبو الأعلى المودودي، **بين الدعوة القومية والرابطة الإسلامية** (القاهرة: [دار الأنصار]، ١٩٦٧)، ص ٩ – ٣٨.

والتنقل، وإيصال رسالة واضحة للعالم أن محمداً (ﷺ) استطاع أن يبني دولة إسلامية قوية في قلب الصحراء غير معتمد على مصادرها ومواردها، وإنما على الرسالة الربانية التي أنزلت عليه<sup>(٦٨)</sup>.

لا يرتاح الإسلاميون إلى موضوع الدولة الوطنية، ففي محاضرة ألقاها الدكتور كليم صديقي في المعهد الإسلامي في لندن، بين فيها أن إزالة «الدولة الوطنية» التي تقسم الأمة الإسلامية بأشكال متعددة يجب أن تكون الهدف النهائي والأساسي لجميع الحركات الإسلامية المعاصرة. وأصر صديقي على إعادة رسم خريطة العالم الإسلامي وتشكيلها كاملة، مقترحاً استبدال الدول الوطنية في العالم الإسلامي بأربع دول إسلامية إقليمية. **الدولة الأولى** تمتد في الشرق الأقصى، وتضم كلاً من إندونيسيا وماليزيا وسنغافورة وأجزاء من تايلاند والفلبين وبنغلادش، أما **الدولة الإسلامية الثانية** فتوحد بين باكستان وأفغانستان وإيران وتركيا والعراق والخليج وبلاد الشام وجمهوريات آسيا الوسطى، أما **الدولة الإسلامية الثالثة** فتضم كلاً من مصر والسودان وشمال أفريقيا، بينما تضم **الدولة الرابعة** تشاد والنيجر ونيجيريا ومالي ودول الساحل الأفريقي الغربي من السنغال حتى الغابون<sup>(٦٩)</sup>.

## خامساً: إسلامو - فوبيا في أعقاب ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

ساهمت أحداث أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ في تدشين مرحلة جديدة من مراحل النظام الدولي الذي بدأ يتبلور في فترة ما بعد الحرب الباردة في بداية التسعينيات من القرن الماضي. يعد انهيار الاتحاد السوفياتي ومنظومته الشيوعية في أوروبا الشرقية، وانتصار الحلفاء بقيادة الولايات المتحدة في إخراج القوات العراقية من الكويت عام ١٩٩١ بمثابة الحدثين المهمين اللذين لعبا دوراً محورياً في بروز نظام أحادي القطبية، حيث السيطرة الأمريكية العسكرية والسياسية والاقتصادية والمعلوماتية والإعلامية على مجمل النظام السياسي الدولي<sup>(٧٠)</sup>. ورغم الشعارات العريضة والعناوين البراقة التي رفعتها إدارة بوش الأب، مثل: السعي نحو نشر الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والتعددية السياسية، وحل النزاعات بالطرق السلمية، وحق تقرير المصير للشعوب المظلومة، فإن المراقب والمتتبع للأحداث يستشعر أن النظام العالمي الجديد بحلته الأمريكية يعني مزيداً من التفرد والأحادية والخطوات التدخلية<sup>(٧١)</sup>. وفي هذه الأثناء وقعت أحداث أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

(٦٨) قطب، المصدر نفسه، ص ٣١.

(٦٩) Asghar Ali Engineer, «Religion and the Nation-State», *Seminar* (New Delhi), no. 290 (October 1983), p. 31.

(٧٠) Ayman Yousef, «Palestine in U.S. Foreign Policy: Between Domestic Politics and Global Agenda», *South Asian Journal of Socio-Political Studies*, vol. 6, no. 1 (December 2005), p. 13.

(٧١) المصدر نفسه.

التي نجحت القاعدة فيها، بقيادة أسامة بن لادن، في توجيه ضربه مؤثرة إلى أمريكا، ورغم أن هذه الضربة لم تكن قاسمة بالشكل الذي يهدد وجود الولايات المتحدة، ويؤثر سلباً على قيادتها للعالم، فإن ميزة أحداث أيلول أنها كانت أولى الضربات التي توجه إلى أمريكا في عصر دارها، لاسيما أن أمريكا كان ينظر إليها على أنها محمية أمنية، وقلعه منيعة يصعب اختراقها. وقد انغمس العديد من المفكرين والمحللين الاستراتيجيين والخبراء في مهمة تفسير ظاهرة الإرهاب الدولي في أعقاب صدمة أيلول/سبتمبر، وبدأوا يناقشون البدائل والخيارات المطروحة أمام صانع القرار الأمريكي في معالجته لمثل هذا التحدي الجديد.

نشطت النظريات والتحليلات المتعددة لتفسير ظاهرة الإرهاب، وبخاصة ما اصطحح عليه بـ «الإرهاب الإسلامي» الذي ضرب بقوة في أيلول/سبتمبر، فبعضهم أرجع العوامل والأسباب إلى أبعاد نفسية تعكس درجة الفجوة بين ما يعتقد «الإرهابي» أنه صحيح وذو قيمه من جهة، والقدرات والإمكانات الذاتية والفعالية التي تؤهله لتحقيق ما يعتقد أنه صحيح ومقدس<sup>(٧٢)</sup>. أما القراءات الأخرى لهذه الظاهرة، فانصبت على تحليل دور الدين والمعتقدات الفلسفية في أدلجة عقول الناس، لاسيما الشباب منهم، وإقناعهم بضرورة تبني كل الطرق والوسائل من أجل تحقيق أهداف دينية عقديّة يعتمد عليها مصير الأمة. وترجع هذه المدرسة جذور «الإرهاب الإسلامي» المعاصر إلى عام ١٩٧٩، وهو تاريخ انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وبدء الجهاد الأفغاني والإسلامي ضد الوجود السوفياتي الإلحادي في أفغانستان، ويعد صمويل هانتنغتون من أتباع هذه المدرسة، حيث اعتبر الدين والثقافة والمكون الحضاري من العوامل التي تؤثر في تسيير أحداث السياسة الدولية، وخصوصاً بعد انتهاء الحرب الباردة<sup>(٧٣)</sup>.

انشغل الكثير من المختصين وغير المختصين بشؤون القاعدة والحركات الإسلامية بدراسة مختلف أدبيات القاعدة ومنشوراتها وبياناتها وأخبارها على شبكة الإنترنت، فقد قام كيبيل على سبيل المثال بترجمة أجزاء مهمة من كتاب أيمن الظواهري فرسان تحت راية الرسول، الذي جاء فيه أن على القاعدة والمؤمنين المسلمين أن ينطلقوا في جهادهم من العدو الأقرب (الأنظمة العلمانية في الأقطار العربية والإسلامية) إلى العدو الأكبر والأبعد (أمريكا وأوروبا الغربية)<sup>(٧٤)</sup>. ومن أجل تحقيق ذلك، على الجهاديين الإسلاميين تبني أدوات ووسائل جديدة تتمثل في بروز قيادة جديدة تمتاز بالعقلانية والعلمية، وتمتلك قدرة المواجهة مع الغرب من خلال تجنيد وتحشيد الجماهير التواقفة إلى العمل الجهادي

(٧٢) «But Who Are They: Chaos Theories,» *Los Angeles Times*, 12/12/2004, p. m1.

(٧٣) Samuel Huntington, *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order* (New Delhi: Penguin Books, 1996), pp. 109-120.

(٧٤) نقلًا عن: Mohammed Madani, «Whither Political Islam, the War for Muslim Minds: Islam and the West,» *Foreign Affairs*, vol. 84, no. 1 (January-February 2005), p. 336.

والنضالي. والأمر الخطير في هذه الأطروحات الغربية المنقولة على لسان الظواهري هو أن الجهاديين الإسلاميين أحلوا سفك دماء الغربيين، مدنيين وعسكريين، بذريعة أن هذه المجتمعات مجتمعات أنانية ومادية وكافرة، وأنها تدعم حكومات بلادها بتوجيه حراها وجيوشها ضد الإسلام والمسلمين<sup>(٧٥)</sup>.

انطلقت موجة من التهويل الغربي بخطر الأصولية الإسلامية أو إسلامو – فوبيا، في أعقاب أحداث أيلول/سبتمبر في أمريكا، حتى وصلت درجة أن بعض المثقفين والإعلاميين والخبراء الغربيين ادعوا أن بن لادن والقاعدة يسعيان لتأسيس إمبراطورية إسلامية مترامية الأطراف ممتدة من المغرب غرباً إلى إندونيسيا شرقاً، ومن آسيا الوسطى شمالاً إلى جنوب إفريقيا جنوباً، بحيث تقوم بتحقيق أهدافها ومبادئها بكل الطرق الممكنة، بما فيها العنف والجهاد. وإذا وضعت هذه الأطروحة الافتراضية في سياق نظري، فإنه يمكن القول إن الغربيين من إعلاميين وأكاديميين وصناع قرار ومراكز أبحاث يحاولون إيصال فكرة مفادها «أن العالمية الإسلامية القائمة على التطرف والإرهاب أصبحت الخطر القادم الذي استبدل الشيوعية، والذي بات من الضروري احتواؤه بكل الطرق، لأنه يشكل تهديداً مباشراً على المجتمعات المتمدنة والديمقراطيات الغربية»<sup>(٧٦)</sup>. وعندما يوضع الجهاد في سياق نظري مفاهيمي غربي، فإن الكثير من النظريات الغربية حاولت دائماً أن تثبت أن الجهاد عند المسلمين ما هو إلا ردود أفعال «ناقمة وحاقدة» على الحداثة الغربية التي تقودها أمريكا، وعلى الحضارة الغربية بمظاهرها المادية والمعنوية والإنسانية والأخلاقية<sup>(٧٧)</sup>.

اتصفت آراء ووجهات نظر كثير من المختصين الغربيين بالإسلام والإسلاموية بالضيق والقصور العلمي والفكري، إذ اعتبروا منفي أحداث أيلول/سبتمبر في واشنطن ونيويورك مؤدجين ومصابين بحمى «الجهاد العنفي الدموي». فجون إسبستو على سبيل المثال يعد من أكثر من كتب عن الإسلام، وقام بتحرير العديد من المقالات والكتب والتحليلات حول الظاهرة الإسلامية المعاصرة، حيث قام بوضع أحداث أيلول/سبتمبر في سياق «العملية الدموية» الناتجة من أيديولوجية جهادية مقرونة بعقيدة الإسلام. وعندما يحلل شخصية بن لادن، يضعها في صفة الشخصية العربية التقليدية المملوء صدرها «بالحقد والكراهية على أمريكا»، والمشبعة بالمبادئ الجهادية التي نمت معه منذ صغره، لاسيما أنه نما وترعرع في بيئة صحراوية تسيطر فيها الأفكار الوهابية<sup>(٧٨)</sup>. لذلك تم تحميل الفلسفة الوهابية مسؤولية ما حدث في أمريكا، حيث ظهرت دعوات علنية وغير علنية من العديد من السياسيين وصناع

(٧٥) المصدر نفسه.

(٧٦) M. Barbara and R. Benjamin, «Beyond Jihad,» *Nation* (21 January 2002), p. 14.

(٧٧) المصدر نفسه، ص ١٦.

(٧٨) Ibrahim Abu-Rabi, «Unholy War: Terror in the Name of Islam,» *Muslim World*, vol. 92, nos. 3-4 (October 2002), p. 496.



القرار ومراكز الأبحاث في الغرب، وبخاصة في أمريكا، تطالب السعودية بـ «ضرب الإرهابيين وأوكارهم في المملكة» سواء كانوا منظرين للعنف من شيوخ المساجد ومدرسي المناهج الدينية المتشددة التي «تشيطن» أمريكا والغرب، أم حاملين للسلاح من أنصار القاعدة الذين يعملون ويخططون في الظلام لضرب المصالح الغربية والأجنبية داخل السعودية وخارجها<sup>(٧٩)</sup>.

شنت بعض دوائر القرار الأمريكي ومراكز الأبحاث المقربة من الإدارة الأمريكية حملة عشواء ضد السعودية وضد المؤسسات والجمعيات الخيرية الممولة من داخل المملكة وخارجها، على اعتبار أن النظام السعودي، بفكره الديني وتركيبته الاجتماعية، يساعد — بحسب الادعاءات الأمريكية — في إنتاج وتفريخ الإرهاب. من هنا تضاعفت الضغوط الأمريكية على السعوديين من أجل إصلاح نظام التدريس وطرائقه والمناهج المدرسية والخطب الدينية، لأن الأفكار الوهابية تلعب دوراً في إنتاجها وترسيخها لدى الشعب السعودي<sup>(٨٠)</sup>، وكتب مارتن إنديك، السفير الأمريكي لدى إسرائيل والمختص الأول بشؤون السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، مقالاً تحليلياً مطولاً في **الواشنطن بوست** عقب أحداث أيلول/سبتمبر، حيث شدد فيه على الخطوات الاستراتيجية والتكتيكية الخاطئة التي تبنتها إدارة بوش، وفيها أيضاً تركيز الإدارة السابقة في زمن كلينتون على هدف تدعيم جهود السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين من دون الاكتراث بالخطر الكامن «وراء الظلام وهو الإرهاب والقاعدة»<sup>(٨١)</sup>. وقد وضع إنديك استراتيجية جديدة يمكن أن تفيد في خدمة الأهداف والمصالح الأمريكية في المنطقة حيث تشكل من ثلاثة محاور:

أ — تبني استراتيجية جديدة، ليس فقط لاحتواء إيران والعراق في المنطقة ومنعها من امتلاك أسلحة دمار شامل، وإنما تبني سياسة جديدة أيضاً لمحاربة «الإرهاب والإرهابيين في منطقة الشرق الأوسط».

ب — بذل جهود وممارسة ضغوطات أكبر من قبل الإدارة الأمريكية الحالية، «إدارة بوش»، على مصر والسعودية من أجل إحداث تغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية داخل مجتمعهما، وتوسيع دائرة الديمقراطية، على اعتبار أن ذلك يمكن أن يشكل سداً منيعاً ومانعاً لتفريخ الإرهابيين.

ج — تخفيف الضغوطات الأمريكية على إسرائيل في ما يتعلق بعملية السلام مع الفلسطينيين، بل وإعطاء إسرائيل اليد الطولي في محاربة «الإرهاب الفلسطيني» لما

Eric Rouleau, «Trouble in the Kingdom,» *Foreign Affairs*, vol. 81 (July-August 2002), pp. 75-89. (٧٩)

Glenn Simpson, «Suspect Lessons: Muslim School Used by Military has Troubling Ties, Saudi Institute that Preaches Strict form of Islam,» *Wall Street Journal*, 3/12/2003, p. A1. (٨٠)

Martin Indyke, «These Silent Partners Must Speak,» *Washington Post*, 26/11/2001, p. A25. (٨١)

لذلك من انعكاسات إيجابية على حرب أمريكا على الإرهاب الدولي<sup>(٨٢)</sup>.

بأن بوش بوضوح، في خطاب ألقاه أمام الجمعية الوطنية الأمريكية للديموقراطية في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦، أن عدو أمريكا الأول هو الإرهاب الإسلامي الذي يغذيه بن لادن وتنظيم القاعدة. وأطلق بوش على هذه الظاهرة الإسلامية المعاصرة التي تدمج بين الفكر الإسلامي العقيدي والأدوات الجهادية اسم «الفاشية الإسلامية»، مشبهاً إياها بالأفكار الفاشية والنازية التي ظهرت في أوروبا في ثلاثينيات القرن العشرين<sup>(٨٣)</sup>، والتي كانت مبرراً كافياً لدخول أمريكا الحرب العالمية الثانية، وتوسيع دائرة نفوذها في الشؤون الدولية. إن الهدف من هذا التشبيه هو محاولة أمريكية لاغتيال الشخصية المعنوية والأخلاقية والإنسانية للإسلام والمسلمين حتى تسهل عملية الانقراض على الإسلام السياسي من دون أن يكون هناك ردود فعل دولية أو إقليمية أو محلية، كون «العدو» يمثل أيديولوجية خطيرة تشكل تهديداً على الحضارة المعاصرة.

اتسم التحريض الغربي ضد الإسلام باستخدام أدوات ووسائل معاصرة ومتجددة، فبعض المصادر الغربية والإسلامية ترد «الإسلام الجهادي والراديكالي» في أصوله الفكرية ومنابعه العقائدية إلى فلسفة ابن تيمية والحركة السلفية الوهابية في شبه الجزيرة العربية، وإلى الآباء الروحيين لهذه الفلسفة الجهادية والعنفية في الوقت الحالي، من أمثال سيد قطب وأيمن الظواهري وعبد الله عزام وأسامة بن لادن<sup>(٨٤)</sup>. يضاف إلى ذلك تعدد التعريفات الغربية للظاهرة الإسلامية، ومنها على سبيل المثال: أنها ظاهرة أيديولوجية شمولية تبحث في كيفية استخدام الإسلام كأداة للوصول إلى السلطة السياسية؛ و«أنها مبدأ عقائدي تتشكل من تصورات فاشستية شوفينية تقوم على أساس التفوق العرقي، وإخضاع الإنسان بالقوة لمفهوم الحاكمية لله، إضافة إلى قدراتها الرأسمالية والإدارية والتنظيمية»<sup>(٨٥)</sup>.

شكلت أحداث أيلول/سبتمبر نقطة تحول مهمة في السياسة الخارجية الأمريكية، ومفصلاً مهماً من مفاصل النظام الدولي الذي تشكل في الفترة التي تلت تلك الأحداث. فقد تم استغلال هذه الحوادث لتهويل وتضخيم أحداث صغيرة وقضايا غير مرئية وخافتة وتحويلها إلى «ببيع» مخيف يحاول التهام العالم. وفي هذا الصدد نشطت الدعاية الأمريكية التي قادتها الصحف اليمينية ووكالات الأنباء والمحطات الفضائية المحسوبة على المحافظين الجدد في محاولة مكشوفة منها لتبرير السياسات التدخلية والإمبريالية التي تبنتها إدارة بوش، لا سيما دعمها استراتيجية الحرب الاستباقية، التي تضمنت التدخل في الشؤون

(٨٢) المصدر نفسه.

(٨٣) Norvell B. De Atkine, «Islam, Islamism and Terrorism», *Army*, vol. 56, no. 1 (January 2006), pp. 55-56.

(٨٤) المصدر نفسه، ص ٥٦.

(٨٥) المصدر نفسه، ص ٥٧.

الداخلية في بعض الأقطار العربية والإسلامية. ولعل أفغانستان والعراق والضغطات الأمريكية المتتالية على الأقطار العربية الأخرى لدفعها لإجراء إصلاحات سياسية واقتصادية هي أكبر دليل على ذلك<sup>(٨٦)</sup>. لقد أثبتت الأيام أن الادعاءات والحجج الأمريكية في امتلاك العراق أسلحة دمار شامل، والتي جاءت كمبرر لغزوه، هي في الحقيقة باطلة وغير صحيحة، وإنما استخدمت كحجة واهية من أجل التدخل وتفكيك الدولة العراقية وتدمير نسيج الحياة الاجتماعية والطائفية والمذهبية في العراق<sup>(٨٧)</sup>.

ومن أجل تحشيد الرأي العام الأمريكي وتجنيد ولاء خطوات تدخلية وإجراءات غير مسبوقة، لاسيما على صعيد الحروب الاستباقية، لجأت الإدارة الحالية إلى التهويل بخطر القاعدة، ومدى مقدرتها على تهديد الأمن القومي الأمريكي. فقد ظهر جيل جديد من المحللين السياسيين والاستراتيجيين الذين انصبت مهمتهم على تخويف الرأي العام الغربي والعالمي من الإسلام، أو نشر إسلامو- فوبيا، بذريعة أن ضربات القاعدة التي تتم باسم الإسلام ستكون قاتلة ومدمرة وبخاصة في حال امتلاك القاعدة أسلحة الدمار الشامل، بما فيها القنابل القذرة والأسلحة النووية<sup>(٨٨)</sup>. لذلك يجب أن تكون الحروب التي تخوضها الولايات المتحدة، في أرض العدو، وهذا يتطلب زيادة الإنفاق على السلاح والتكنولوجيا العصرية الناعمة التي تستخدم «لمحاربة الإرهاب والإرهابيين المسلمين المسلحين بالقنابل القذرة والعقيدة الأصولية القاتلة»<sup>(٨٩)</sup>.

وقد وقف دانيال بايبس، المستشرق الأمريكي المعروف والمختص بشؤون حركات الإسلام السياسي، ضد استخدام مصطلح «إسلامو- فوبيا» في الإعلام والصحافة والأدبيات الغربية المختلفة، لما لهذا المصطلح من عدم وضوح وغياب الدقة، خاصة أنه لا يميز بين الإسلام الراديكالي المُسيّس والإسلام كديانة سماوية متسامحة. يضاف إلى ذلك ارتفاع وتيرة الاضطهاد والمضايقات التي تواجه المسلمين في الغرب، وبالتحديد بعد أحداث نيويورك ومدريد ولندن، فضلاً عن أن شيوع هذا المصطلح في الأوساط الغربية والأكاديمية والبحثية والإعلامية يساهم بشكل مباشر في تهميش دور المسلمين المعتدلين، لاسيما النخب الفكرية والأكاديمية والسياسية التي تبذل جهداً كبيراً لإبراز الإسلام في صورة الدين المعتدل والمتسامح. ورغم ذلك، فإن بعض المقالات والتحليلات الصحفية التي كتبها بايبس لبعض الصحف والمواقع الإلكترونية كانت دائماً تقع تحت عناوين براقية تدين الإسلام والمسلمين، وتصفهم دائماً بالتطرف والإرهاب والأصولية<sup>(٩٠)</sup>.

Norman Solomon, «Trust, War and Terrorism,» *Humanist*, vol. 63, no. 5 (September 2005), p. 34. (٨٦)

(٨٧) المصدر نفسه، ص ٢٥.

Richard K. Betts, «How to Think about Terrorism,» *Wilson Quarterly*, vol. 30, no. 1 (January 2006), p. 46. (٨٨)

(٨٩) المصدر نفسه، ص ٤٨.

Daniel Pipes, «Meet Islamophobia,» *Jerusalem Post*, 27/10/2005, p. 14. (٩٠)

## خاتمة واستنتاجات

بالرجوع إلى مشكلة البحث والأسئلة الافتراضية التي أثارها الباحث في المقدمة، يمكن القول إن الاستعراض المطول والتحليل النقدي ومناقشة المعطيات جاءت بهدف الإجابة عن هذه التساؤلات والاستفسارات، واستجابة لمشكلة البحث المركبة. وهكذا كانت الصورة الغربية عن الإسلام والمسلمين نمطية سلبية سيطرت عليها الاستعلائية والعنجهية والاستخفاف بالآخر. وقد سادت هذه القوالب الذهنية المنتقصة للآخر في فترة القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، حيث كان العرب والمسلمون يعيشون فترة من الانحطاط والتقليد الأعمى وظهور النزعات القومية بين الأتراك والعرب، مما قاد ذلك في النهاية إلى التسريع بنهاية الدولة العثمانية. وفي فترة الانسداد السياسي والاجتماعي عند العرب والمسلمين، كانت أوروبا تحقق إنجازات هائلة في ميادين العلم والتقنية والسياسة والاقتصاد والفكر بفعل الثورة الصناعية والتمدد الاستعماري والإمبريالي. إن علاقة القوة التي سيطرت على التفاعلات الغربية مع المسلمين قد عكست سيطرة الغرب على العلم والمعرفة، بينما كان العرب يعيشون عصوراً من التخلف والرجعية والانسدادات المجتمعية العامة. وقد تعززت هذه الصورة بفعل الحملات التبشيرية والرحالة والمستكشفين والمغامرين والمستشرقين الذين شمروا عن سواعدهم، كل لأسبابه، لاستكشاف الشرق واستنطاقه بما يتلاءم مع مصالحهم وتصوراتهم. وبما أن الاستشراق الغربي قد تحول إلى مدارس ذهنية وفكرية وأيديولوجية وأكاديمية، وتشكل ضمن إطارات بنوية وهيكلية دمجت القوة مع المعرفة، فإن هذه الصورة النمطية السلبية لم تكن فقط محصورة بالعرب والمسلمين، وإنما عممت على الشرق كله حتى وصلت إلى الهند والصين واليابان.

في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، ظهرت مجموعة من العوامل والمتغيرات والمعطيات والمستجدات التي انعكست بدورها على علاقة الغرب مع المسلمين. ومن هذه العوامل تأسيس حركة الإخوان المسلمين في مصر عام ١٩٢٨، وبداية اندثار الاستعمار الأوروبي، وظهور الدولة الوطنية. لقد كانت حركة الإخوان المسلمين امتداداً فكرياً لفكر عصر النهضة العربي، الذي بدأ في القرن التاسع عشر، وقاده الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا، بحيث أخذ طابع الإصلاح، والموازنة بين الأصالة والمعاصرة.

ولعبت حركة الإخوان دوراً مهماً في تسييس الإسلام، وإقحامه في الحياة العامة في المجتمعات العربية الشرق أوسطية، من خلال التشديد على الطبيعة العالمية للمشروع الإسلامي، والذي تجسده الخلافة، أما الدولة الوطنية التي ظهرت عند العرب، فبقيت ناقصة السيادة والشرعية، بسبب هزائم العرب المتكررة أمام إسرائيل وضياع فلسطين. كما أن الطبيعة العلمانية للدولة القطرية العربية ساهمت في النهاية في تقوية المد الإسلامي، حيث فشلت الدولة القطرية في إحداث التنمية في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فضخمت الأدبيات الغربية، إلى حد التهويل، قضية تسييس الإسلام وعالمية المشروع الإسلامي، من خلال التركيز الكبير على أداء الصلوات داخل المساجد

والالتزام الديني، وعلى الطبيعة العالمية للإسلام التي ترفض أن تتعايش مع المصالح والأهداف الغربية في المنطقة. هذا النموذج من الإسلام السياسي هو الذي تناولته الأدبيات الغربية، وروجت أيضاً لفكرة عدم تأقلم الحركات الإسلامية المعاصرة وعدم تكيفها مع نموذج الدولة الوطنية التي ظهرت في المنطقة العربية بعد الحرب الثانية على اعتبار أن هذه النماذج منقوصة وتمت هندسة حدودها في العواصم الغربية.

شكلت أحداث عام ١٩٧٩ نقطة تحول مهمة في التصورات والتنبؤات الغربية حول الظاهرة الإسلامية، بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وتأسيس دولة إسلامية شيعية فيها بقيادة الملالي وآية الله الخميني. كما أن الغزو السوفياتي لأفغانستان في العام نفسه هيأ الظروف والأوضاع والأرضيات لانطلاق الجهاد الأفغاني، وبداية تدفق الجهاديين العرب لمحاربة الشيوعية والإلحاد على الأرض الأفغانية الإسلامية. نقطة التحول هذه حدثت حين انتقل فيها الإسلام من مرحلة التنظير السياسي والحضاري الداخلي ذات الطابع السلمي إلى مرحلة العمل الميداني الجهادي، أي الانتقال من مرحلة الكلام إلى الفعل الجهادي. وربما كانت هذه الفترة البدايات للترويج لفكرة إسلامو- فوبيا في الإعلام الغربي، وفي مراكز الأبحاث والدراسات، والدوائر المقربة من صنع القرار السياسي. لكن هذه الأصوات الغربية بقيت خافته، ولم تصل إلى السطح بأبواق مدوية كون الغرب عموماً وأمريكا على وجه الخصوص كانا بحاجة إلى شن حرب شنيعة ضد السوفيات في أفغانستان، حيث استُغلت الجماعات الجهادية ضمن استراتيجية معينة للقيام بحرب بالإناية عن الولايات المتحدة. وقد كانت هذه الاستراتيجية هي الأفضل في المنظور الأمريكي في أعقاب حرب فيتنام، لأن أي تدخل أمريكي في هذه الحرب بطريقة مباشرة كان يعني مواجهة نووية مع الاتحاد السوفياتي الذي كان يخوض حرباً في حديقته الخلفية.

اكتسب حدث انهيار الاتحاد السوفياتي أهمية خاصة في السياسة الدولية والسياسات الغربية لأن مثل هذا الحدث غيّر من طبيعة التوازنات الدولية، ومن هيكلية النظام الدولي وتوزيع القوة فيه. وفي منتصف التسعينيات من القرن الماضي بدأ الاهتمام الغربي بالقاعدة يزداد يوماً بعد يوم بسبب الانتصارات السريعة واللافتة، التي حققتها طالبان بمساعدة الجهاديين العرب في أفغانستان وبدعم باكستاني. لكن أحداث أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ شكلت المفصل الذي غيّر من وجه السياسة الدولية، وكان لها تداعيات على السياسات الأمريكية خاصة تجاه المنطقة العربية والإسلامية. فإضافة إلى احتلال أمريكا لأفغانستان والعراق، اتسعت دائرة التعميمات والعموميات الأمريكية والغربية المفرضة التي سعت منذ البداية إلى ربط المسلمين بالإرهاب وبكل شيء مشين. واتسعت دائرة الهوس الأمني والإسلامو- فوبيا في الدوائر الغربية، وانعكس ذلك على سياسات الدول، وعلى سلوك الأفراد والجماعات. وقد استُغلت أحداث أيلول/سبتمبر لـ «شيطنة» المسلمين ولشن حرب إعلامية ونفسية ضدهم أفراداً وشعوباً، فتوسعت دائرة المضايقات الممارسة ضد المسلمين، وخاصة في المجتمعات الغربية، وهو ما ساهم في تهجير العديد من الأسر العربية والمسلمة من هذه المجتمعات. وبالإضافة إلى الاحتلال العسكري المباشر والحرب

الإعلامية والنفسية والمضايقات، ظهرت حرب مفاهيم ومصطلحات، مثل «الإسلامو – فوبيا» و«الإرهاب الإسلامي» و«الفاشية الإسلامية» وغيرها.

أما بالنسبة إلى استراتيجية الخروج من هذا المأزق، يقترح الباحث مجموعة من التوصيات والاقتراحات، ومن أهمها ما يلي:

١ – تكثيف الجهد العلمي والبحثي والأكاديمي العربي والإسلامي من أجل الوقوف بطريقة نقدية على المصطلحات والمفاهيم الغربية التي أسقطت على الإسلام والمسلمين، مثل الأصولية والإرهاب والقوبيا والفاشية.

٢ – تفعيل دور المنظمات العربية والإسلامية الحكومية وغير الحكومية لتلعب دوراً في تحسين صورة العربي والمسلم من خلال الاستثمار الفاعل في الجهد والموارد والمصادر.

٣ – إقامة شراكات بحثية وأكاديمية بين المثقفين والأكاديميين العرب والمسلمين من جهة، ونظرائهم الغربيين من جهة أخرى، من أجل وضع أبحاث مشتركة تخص الجوانب الحضارية والتراثية للمجتمعات الإسلامية، فضلاً عن تفعيل أدوار الجامعات ومراكز البحث العلمي.

٤ – مضاعفة الجهود التي تقوم بها السفارات والقنصليات ومراكز الأبحاث العربية والإسلامية في الدول الغربية، وفي كل مناطق وجودها، حيث يجب أن يطلب من موظفيها والعاملين فيها ضرورة التقيد بالسلوك الجيد في أوساط المجتمعات الموفدين إليها.

٥ – إعادة تحديد النشاطات والأدوار والفعاليات التي تقوم بها المنظمات العربية والإسلامية المقيمة في الغرب ضمن استراتيجية مدروسة وشاملة وبطريقة شفافة وحضارية حتى يكون لها دور وقول في الرد على السياسات والإجراءات الغربية التي تستهدف الإسلام والمسلمين.

٦ – تفعيل عنصر الاجتهاد والإجماع بين علماء الأمة في الأمور والقضايا المختلف عليها، وتغليب الأصوات المعتدلة والوسطية عند المسلمين ■